حفنة وجع

العنوان: حفنة وجع (رواية).

الكاتب: بهيليل فضيلة .

تصميم الغلاف: دليلة حسناوي.

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي: محمد جرديني.

الطبعة الأولى السداسي الثاني 2024.

ISBN: 978-2-38660-029-6

EAN: 9782386600296

دار الأمير للنشر والتوزيع والترجمة Maison D'édition El Amir

3-Boulevard Charles Moretti.

13014 Marseille

assoelamir@gmail.com

الهاتف:0033760734119

الآراء الموجودة بالكتاب لا تعبّر بالضرورة عن الجهة الناشرة

- جميع الحقوق محفوظة -

لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.

EL AMIR

MAISON D'ÉDITION

الأوجاع أوجاعي...

والجرح الغائر خارطتي

والخنجر أنت"..

"فضيلة"

إهداء

إلى ابنة "عين غراب" التي كانت لي كل الأهل حين

غادرتُ أهلي ومدينتي . . الرائعة "أ . مسعودة" .

إلى "الحضنة" التي احتضنت كُلّي ولملمت شتاتي . . .

المسيلة . . . مسقط فرحي . . .

"كل طرق المحبة تؤدي إليك. . ."

قطرات مطر تمتصها الطريق في سرعة مدهشة، طريق صهدتها حرارة الصيف وجففتها رياح **العناصر*** التي عصرت قلوبنا وذرّتها اشتياقا وحنينا لما بين جبلَي مكثر وعيسى حشاشة القلب. إنها بداية الخريف تبشرنا بها هاته القطرات التي كثيرا ما ركضنا تحتها ببراءة مرددين أهازيج المطر"يا النو صُبّي صُبّي.. حتى يجي حمو خويا.. يغطيني بالزربية..."، وبداية طريق طويل سأعبره من هذه النقطة التي التقط لها القلب صور تذكار، من مدينة عين الصفراء التي كلما غادرتها إلا وأحسست جزءا من قلبي تركته يتشظى هنا ويلتم هناك... غير أنني أنسى أرق المسافة وطولها حين أتذكر أن الحضنة وجهتي.. وأنني أسير رغم مشقة السفر والحياة نحو مسقط فرحي ونجاحي.

الغربة مرّة مرارة العلقم، والبعد عن الأهل قاس، تحضرني صورة جدتي تودع خالي المسافر قائلة:

* أيام حارة من فصل الصيف تقدر بثمانية عشر يوما يحصي أيامها الفلاحون والشيوخ الكبار.

"الغربة يا ولدي ليست غربة الجسد، إنما الغربة الحقيقية هي غربة الروح حتى وإن ظل بمحله الجسد".

فأتساءل سرا: "أي الغربتين أعيش؟" .

طوت المسافات صورة المدينة وظللت أمسك بقلبي قبل يدي لوحة كان أهدانيها الفنان التشكيلي "**محمد جرديني**"، لوحة تربعت على عرش القلب مذ رأيتها لأول مرة تزين جدار معرضه الصغير الذي اتخذه من إحدى غرف منزله، ولم يتردد في الحديث عنها كما فعل مع باقي اللوحات، غير أنه لم تأسرني سوى واحدة اخترتها رفيقتي لسفر هذا الموسم، رحت أضمها كأنما أفتش من خلالها عن عبق القصر.. وأهالي الديار... بمدينتي التي أبدع الرحمن في تشكيل تضاريسها وترك لعشاقها إبداع وصفها.. بالقلم والريشة والعود.. مع الكثير الكثير من المحبة.

عاودت حبات المطر نقراتها على الزجاج بعدما خفض السائق السرعة عند مدخل مدينة البيّض، قرّبت وشاحي البنّي ألفّ به اللوحة خشية أن تتبلل جدران القصر بالمطر، وقد أغوتني رائحة طينها لمغامرة ما...

"حفنة وجعٍ تذرُوها الرّياح"

لا شيء صار مميزا بأيامها ولا صدف تُبدّد هالة حزنها، وحده الحنين يحاصر تفاصيل عمرها، يتنقل عابثا بطرف وشاحها واشيا للجميع شوقها دون أن تقول شيئا عدا عَبرات علقت برمشيها وهي تدس أسئلتها المتقدة وجعا "آه جدتي... أي النساء أنت؟ شيطان بثوب إنسان أم قدّيسة تلبّسها شيطان؟".

تمتمت زينب وهي تجمع قطع التذكار التي صارت تنثرها على فراشها كلما اشتاقت رائحة والدتها أم الخير، تلك القطع التي لا تزيد عن عقد من المرجان الأبيض، كحل بلا مرود، وفولارة كثيرا ما غسلتها بدمع حارق، تتمنى لو استطاعت معانقتها ليلة التقتها في مناسبة لأحد الأقارب. كانت أم الخير لملمت حايكها وبكفها كيس حلوى لابنتها لما علمت بوجودها في حفل عقيقة. حين وصلت رأتها تجلس مع الأطفال بالحوش المخصص لاستقبال الضيوف عانقتها باكية تلثم كل جزء منها وهي تضع بكفها الصغيرة قطع الحلوى.

تذكر زينب كيف أنها رمتها أمام أمها على التراب حين طلبت منها جدتها ذلك قبل أن تلف حايكها بغضب وتشدها من مرفقها نحو الباب، تاركة أم الخير جاثية على ركبتيها منتحبة تضرب

بكفيها فخذيها، ونسوة طاردن الحاجة صفية بكلمات لم تذكر منها غير قولهن: "وكيلنا فيك مولانا..".

تبكي زينب مرارة الذكرى، تعيد الأغراض إلى خزانتها دون أن تنتبه جدتها لدمعها الذي تشرّبه طرف كُمها بصمت. لا شيء تغير بملامح جدتها منذ ذلك الزمن سوى بعض التجاعيد التي تطاولت على وشمها المرسوم بدقة أعلى خديها وأسفل ذقنها، ها هي تجلس بنفس الركن من الغرفة التي تشتركان فيها، على فرّاشيتها البيضاء بنقش **الخُلّالة*** المعقوفة نهاياتها، تدهن بزيت الزيتون والقرنفل ضفيرتيها الحمراوين بحناء "بنت الرّيف" وبمشط دقيقة أسنانه تحرر خصلاتها من بقايا الضفيرة، بينما جلست زينب مقابلة لها تهز الرحى لتدر طحين خبز لَيلتهم تلك، كانت عجنته لاحقا بكثير من الوجع تقدمه قربانا للنسيان.

تدور رحى العوز والجدة تدندن بعد أن هاجت عليها نسائم التذكار لحلقات أعراس كانت تتوسطها ضاربة الدف بكفها اليسرى، راقصة مرددة مع من كانت لا تكتمل فرقتهن إلا بصوتها:

"يا لا لاّ لحمامة طارت وعلّات

* هو شكل هندسي عبارة عن رسم لقطعتين مستقيمتين تتقاطعان مع نظيرتيهما أطلقوا عليه اسم الخلالة.

خلّات الريش آآنا...

لالاّ لحمامة برّانية ...خَيْها فالدُّوَار

لحمامة والطير الحر... فالسما يتلاقاو...

يا لا لاّ لحمامة كانت بيضا ... واليوم تحنّات.."

تدندن الحاجة صفية، تضم يديها في تباطؤ، تصفق حسرة وقد تسربل شريط ذاك الزمن، بينما مازالت الرحى بين يدي زينب تدور وتدور.

طرق على الباب ما إن سمعته الحاجة صَفِيّة حتى أسرعت بربط ضفيرتيها معا بقماش قَصّتْه طولا ليحكم قبضته على الضفيرتين وهما تعودان إلى الأمام في حركة آلية قبل أن تغطيه كاملا بخمارها الأخضر وغَنّاسها آمرة زينب بفتح الباب.

على عجل نفضت الطحين العالق بحجرها تسارع لترتب خمارها أمام مرآة الخزانة قبل أن تقف خلف الباب سائلة:

-" من؟".

رد بكثير من الفرح يغمر بحّته:

-"ابن عمك، صالح".

بدا لها لم يتغير كثيرا، نفس العيون ببريق شوق يغالبه، ابتسامة خجولة تنفرج عن شفتين رسمتهما لحية خفيفة بدقة فزادته وسامة، وقامة تضطرها لرفع رأسها كلما خاطبت عينيه. تبادلا كلاما سريعا متقطعا اقتضته مدة وصوله غرفة الجدة وانصرفت لإعداد صينية الشاي. صالح ابن عمها الذي شاركها طفولتها بمنزل جدها؛ ركضا معا، لعبا ببراءة معا، جمعا حلزون الوادي وأكلا أعشاب الخُبّيز والعيهقان معجونا بالزبدة والملح.

صالح الذي بكى لبكائها ليلة باتت أم الخير تجمع أغراضها، بدمعٍ حارقٍ تجرّ خطوات مثقلة، تضم زينب تارة وتمسح على شعر صالح أخرى فتفضحها زفرات ظلت تكتمها عنهما إلى أن ضاق بها الصدر فانفلتت. كان صالح قد جلس القرفصاء قرب زينب وبكى معها في صمت، صالح الصديق الوحيد الذي شاركها كل شيء حتى الحزن ولم يفهما لماذا أخفوهما فجأة عن بعضهما حين كبرا فصارا يكتفيان بالتحية من بعيد.

صالح رفيق طفولتها الممزقة بين والدها وجدتها من جهة، وبين أم لم تشبع من دلالها و حضنها، أُمّ لم تكن تراها حتى في المناسبات، أم مفجوعة تزورها خفية، تنتظر ظلها إذ هي خرجت من المنزل قاصدة أحد منازل الجيران أو الدكان المجاور، فقط لتمتص رائحة حليبها وتقبّل آخر أثر من خطوات تتركها خلفها،

تدثر بها روحها كلما توارى عنها طيف ابنتها، لتلمح زينب وجه أمها الباكي مرارة الفراق، لكنها لم تكن حينها مثلها تحزن، كانت تكتفي بإخفاء ما تهديها عن جدتها وأبيها وإذا كشف أمرها أوهمتهما أنها من عند صديقتها وردة فيثنيان عليها بينما تدس في قلبها حب والدتها لها وشوقها الذي تجذر لاحقا بروحها، حين اكتشفت أنها تكبر وتتغير شعرت بحاجتها الشديدة لوجودها ورغبتها الجامحة في ضمها وتقبيل كل جزء منها.

وحده صالح كان يفهم معنى شوقها لأمها وهو المكلوم بفقدها بلا رجعة، لا يذكر لها سوى صبيحة عيد غادرت فيه روحها تاركة خنجر الرحيل ينغرس بحلقه كلما حاول استذكار قصص أمه على مسمع زينب التي تذر ملح الوجع بدموعها، ومعاً ينتحبان.

"يتيمان" قال لها ذات مساء قائض تحت ظل شجرة عرعار كان جدهما يبخّر الحوش ببقاياها صيفا، طاردا الأرواح الشريرة، وعين الحسود، مرتلا المعوذتين وآية الكرسي، ثم يستغفر تاركا لهما رائحة زكية خلَّفها اشتعال العرعار، ونكتاً تخيلاها حول شكل تلك الأرواح الشريرة؛ ذاكرين مرة أنها تكون لروح جارتهم فاطنة الشّوافة، وأخرى للتاجر بوشاشية الذي يعتصر منهم العشرة

دورو اعتصارا دون شفقة، فيضحكان ناسيَين للحظات جرح اليتم ذاك.

طفولة بترت أحلامها ولم يستطع إغداقُ جدتها عليها بالهدايا أن يخفف شيئا من غبن فراق أمها، وشم تحمله بروحها يتكشف ويتعرى أمامها كلما شعرت بحاجتها لمن يسمع أنينا بصدرها ظل متقدا بين الضلوع.

ها هو صالح يعود اليوم لكنه الآن رجل مسؤول شد المعول عن أبيه الطاهر، وراح يواصل تقليب مساحات أرض تضيق يوما بعد آخر بصياح الورثة الذين تكاثروا من ثلاث زوجات؛ الأولى والدته التي أهدته قبل وفاتها أخوين، والثانية خالته ميمونة التي انتشلها من تيه الطلاق، لم تنجب رغم ابتلاعها جل العقاقير التي وصفت لها، ليتزوج الثالثة التي راحت تسابق الزمن في الإنجاب بغية احتلال أكبر مساحة من الأرض.

صالح المولع مثلها بالمطالعة مذ كانا يتسللان إلى حجرة جدهما، يحرس أحدهما الآخر، يسرقان من الرفوف كتبا يتبادلان قراءتها ثم يعيدانها بنفس الزاوية والمكان، كأنّ لا يدَ طالتها أو أزاحتها ولو لمسح غبار. صالح حين زيارته في أول عطلة له بالخدمة الوطنية أهداها كتاب **"مموزين"** عربون محبة كانت سحبته

خفية من قماش أخضر لجدتها قبل أن تدسه بصندوق أمها الخشبي وتحكم إغلاق خزانة قلبها بنبض يكاد يتراقص خوفا بعينيها الناعستين.

جلست زينب قرب جدتها تقلب الشاي من الإبريق إلى الكأس في طقوس تحفظها، بينما أطلقت الحاجة صفية العنان كعادتها تشكو صالح ما ألمّ بها من وجع كأنها ترى الشفاء على يديه. اكتفى صالح بمواساتها ومحاولة التخفيف عنها بتذكر أيام جدهما وطرائفه، فتضحك في خجل ضاغطة كفها المخضبة بالحناء كفه التي خشنت من تقليب الأرض والفلاحة. راحت زينب تقلب الشاي ليطلع زبده على حافة الكأس قبل أن تناوله صالح، بينما خفّفت من كثافته لجدتها.

ترى ابن عمها اليوم قد كبر، تشعر أنه صار ينتمي لعالمها، به وَحمةُ اليتم مثلها، فاليتامى يتشابهون. وجلَد لا يكون إلا لرجل في الستين خبر الحياة طولا وعرضا. ينسلّ منها سؤال مباغت لجلستهم تلك أو لعله كان سابقا لأوانه:

- " متى ستعودون؟".

يرتبك صالح بينما تحدّق جدتهما "صفية" في الفراغ خوفا من رد توجّسته.

-" لا أدري، والدي يقول ممكن نستقر هناك بتوات، وقد أرسلني لتقصي أسعار الأراضي كي يبيع أرضنا هنا".

تضرب الجدة كفاً بكف كأنها تصفق لخيبتها، تهرّب زينب وجهها نحو إبريق الشاي قبل أن ترفعه ثانية لتملأ مرة أخرى كأس صالح الذي دفن وجهه في خيبة الجواب. لم يكن يحتسي الشاي في هدوء مثلهما كما تحتسى أحاديث المساء بمدينة الرمل، كان يبلعه في دفعتين أو ثلاث.

سؤال زينب أفسد جلستهم تلك قبل أن تبدأ، ذكّره بفراق سيطول، فراق سيحرمه من حب عاش منذ الصغر وكبر وسط الخوف والقلق من القادم المجهول.

أعادت زينب الكؤوس الفارغة للصينية بينما بقي صالح والجدة ينبشان الذاكرة، يتساءلان، يفرحان ويحزنان، كانت انشغلت حينها بكتابة رسالة سريعة لصالح، وضعتها بكفه في جرأة اقتضاها الشوق حين فتح باب الدار يهم بالمغادرة التفت مذهولا، ابتسمت، بادلها ذلك الفرح الخفي وتوارى خلف الباب يودعها بنظرات شوق كبّله طول الانتظار .

عاد صالح في المساء بعد أن جسّ نبض أسعار الأراضي بالهضاب، حاملا قلبا مدججا بشوق جارف لابنة عمه. كانت الجدة قد قامت بتثاقل من سجاد الصلاة، تهز حبات سبحتها فتتساقط بانتظام قبل أن ينحني ويقبل رأسها. ابتسمت دون أن تتوقف عن التسبيح، تشير له بيدها على فراشها ليجلس ريثما تتم عدد التسبيحات، أما زينب فبالمطبخ تستعجل اللقاء بصالح حتى تقرأ ملامحه وتطمئن إلى أن حبها في قلبه لا يزال خافقا، وأن رحيله لأرض توات لم يزده إلا شوقا وولعا.

هي تدري كما أهل بلدتها أن صالح لن يغادر منزل والده حتى وإن تزوج، وحتى وإن تذمرت زوجة أبيه الثالثة، وتدري أيضا أن خالته ميمونة التي ربته ووالده الطاهر سيفرحان إن علما مَن العروس، خصوصا وأن الطاهر كان يقول دوما لأمه حين رفضت تزويج ابنها البكر من ابنة عمته "زيتنا في دقيقنا" ولن نجد لأخي خيرا منها.

لم تطل لحظات فرح زينب فقد غير مسارها عمها مسعود، كان قد عاد من سفرته لتندوف، ما إن سمعت خطواته الخشنة حتى ارتجفت واهتز غطاء القدر في يدها.

آخر مرة رأته فيها كانت منذ أكثر من سنتين، حين طرد صديقتها الوحيدة وردة من المنزل بحجة أنها فتاة منحلة أخلاقيا لا لشيء سوى لأنها تذهب للمحلات والمرافق العامة دون محرم أو وليّ، وتضحك كما الأطفال في الطريق. مكان المرأة بيتها، خروجها عورة، جلوسها على المائدة مع إخوانها أو أعمامها لا يجوز، مناقشتها للأوامر فجور. المرأة تسمع، تطيع، ولا تناقش أو تعارض، هذا هو التديّن عند عمها مسعود، عمها الأميّ الذي لم يرتد مدرسة أو كتّابا صار يفقه في كل أمور الدين دون استثناء، بعد أن لخصه في كلمات تفوح حقدا لكل كائن ختم بتاء تأنيث. عمها الذي غاب طويلا ذات سفر وحين عودته سأله جاره ممازحا:

-" لماذا عدت وقد ظننا أنك تزوجت بعيدا عن الديار وتنعم بحياة كريمة".

رد بلهجة قاطعة ووجه محتقن كأنه يطلع من زمن عصور العصبية:

-" عدت لنشر الدعوة ".

لم ينطق جاره بكلمة، كانت الدهشة عقدت لسانه وجعلته يتساءل حائرا: "ينشر الدعوة أين؟ كيف؟ ألسنا مسلمين موحدين ولا دين في بلادنا غير الإسلام؟!".. لم يسمع مسعود ما قال جاره

الذي اكتفى بتمتمة وانصرف يصفق بيديه مستغربا " عجيب... والله عجيب ".

لا تنسى زينب كما لا ينسى أحد من أقاربه أنه قاتِل زوجته، تلك اليتيمة التي تأخرت ذات صباح في تقديم الإفطار، رماها بعصا كان يهش بها على عنزاته الحبيبات، بينما بوحشية يترك أثرها على جلود بناته وزوجته. أصابت جنينها في شهره الثامن، خرّت على ركبتيها من الوجع الذي زاد عن حده، وبدل أن يتوجه بها إلى مستشفى القرية الذي يعالج مرضاه فيه رجل، أخذها عند ضريح أحد الأولياء وعاد لخيمته كأنما ترك خروفا للنحر. كانت لفظت أنفاسها هناك بعد أن بلغ ضغطها منتهاه متسببا في سكتة دماغية وقّعت نهايتها الأليمة.

من حظها زينب أن جدها كان حيّا وإلا ما كانت لترى المدرسة يوما أو تحصل على البكالوريا، هو ما ظل ينغص تفكير مسعود ويجعله يحقد على والده الذي بدل أن يسبقها هو سنوات للمدرسة أرسله إلى الحدود المغربية الجزائرية راعيا للأغنام.

صرخة واحدة من مسعود جعلتها تجد نفسها عند قدميه، ناسية ارتداء خمارها بوجود صالح الذي كان قد فتح الباب، ليرسم على خدها أول تغريدة عودة وأول وشم أمام صالح الذي لم

يتمالك نفسه وخرج غاضبا، تتبعه توسلات جدته التي لم يرأف لها هذه المرة، ولا استدار ليلوم عمه الطاغية. كان عمه شيطانا طاردهما صغارا بحجة أن لعبهما معا حرام، وها هو اليوم يفتِق كرامتهما كبارا بعد أن رقّعاها بالصبر على الغياب.

لم يكن لزينب حق الرد أو الانزواء بغرفة تبكيها قهرها. عادت للمطبخ وصورة أمها تحضر بقوة، تطلع من زوايا الدار، تطل من نافذة المطبخ ومن ستار الباب. كانت صورتها وهي تبكي بحرقة شبيهة بليلة رحيل أمها، تذكرها زينب كأنها الآن رغم مرور أكثر من خمسة عشر سنة لا زالت حاضرة بنفس الوقع على نفسها، ونفس التفاصيل.

نامت زينب على لظى الوجع، ومتوسدا جمر القهر يتقلب بفراشه صالح، يروي لخالد ابن خالته ما ضاق به صدره حد الانفجار. نام الخلق بهدوء وما نام قلب اليتيمين؛ الأول تلقى كيَّ وشم غائر، والثاني ظل يخفف بقطع الثلج حرقة ذاك الوشم، وأما قلب الحجر فنام على حجر بعدما علف ولغرفته المخيفة مثله دلف.

"توحشتك ... امّيمتي".

صوتها المخنوق عبرات يحاكي فسائل نخل جنان الحاج عُمار، يتردد صداها بواحة القلب "توحشتك امّيمتي"، تحملها عفاريت إلى أرض صحراء توات فيغدو حنينها حفنة وجع تذروها الرياح.

وتحت ضوء قمر مكتمل الحكايا سأل خالد ابن خالته صالح:

-" لماذا لا تذهب زينب لأمها وتتخلص من كل هذا الألم؟".

سؤال خالد كان بمثابة عود حرّك قطع جمر لا قطعة جبن، ونفخ فيه حد التوهج والاشتعال. أسند صالح ظهره على وسادة بالجدار، ثانيا رجله اليمنى باسطا اليسرى على الحصير. زفر كمن تجرع سم علبة سجائر دفعة واحدة، عدل من جلسته، سحب نفسا عميقا، ثم قال:

-"والدة زينب يتيمة رباها الحاج بوفلجة صديق والدها أيام حرب التحرير، قبيل استشهاد والدها بالجبل أوصاه بأم الخير خيرا. كانت والدتها توفيت وهي تلدها بإحدى بوادي جبل مكثر، لم يحضر ولادتها غير زوجة الحاج بوفلجة فكفلاها إلى أن تزوجت.

بعد طلاقها بسنتين كان الحاج بوفلجة قد توفي، لم يكن أبناؤه ليرحبوا بها هي وابنتها، ولا وافق عمي سعيد على اصطحابها

ابنتها زينب رغم توسلاتها ونحيبها، وحتى بعد أن استطاعت أم الخير بأجر خدمتها بيوت القصر أن تؤمن لها ملحقا بسيطا ببيت شيخ الزاوية. عادت مرات ومرات تستعطف عمي سعيد الذي ظلما طلقها بأن يسمح لها باصطحاب ابنتها، غير أنه كان يرفض بشدة مدعيا أنه يخشى على ابنته من امرأة تختلي بنفسها في ملحق".

قاطعه خالد وهو ينهض من فراشه ليجلس مقابلا ذاكرة صالح:

-" كأن قلوبهم قُدّت من حجر".

واصل صالح نكأ جراحه يستعرضها كلها أمام خالد دون أن يهتم لترتيبها. لم يقاطعه خالد وهو يرى تقطب حاجبيه تارة، وتصبب العرق أسفل أذنه، وبجبهته التي لمعت تحت ضوء قمر صيفي خجول. حين فرغ صالح تمدد يبسط وسادته المسندة على الجدار لتقبل الأرض المنصهرة قبل أن يرمي بثقل رأسه عليها.

كان خالد قام إلى المطبخ وعاد بقارورة ماء متجمدة وأخرى معتدلة، وكوب طيني مطلي قاعه بالقطران. جلس بجانبه وراح يشرب الماء دفعة واحدة فلا تسمع غير رقرقة الماء من حنجرته

لأمعائه قاطعها نقيق ضفادع ببركة في الجوار، وصراصير باتت تغني دون توقف حتى وإن كان الوقت حزنا.

استدار قليلا يفتش عن إنارة العمود الكهربائي بالشارع عاود فتح الرسالة التي لم تبرح جيبه مذ هربتها إليه زينب، يتفقدها كل حين بيد حانية، يستشعر بقايا زينب عالقة، لم يحدث خالد هذه المرة اكتفى بتبتل عاشق في محراب الحب يعيد تأمل رسالتها كلمة كلمة وكأنه للمرة الأولى يقرأها.

"قلب على مجمر الحنين يتلظى. . . يحترق"

روائح حرمل وقطران تعبق بالمنازل كل عصر من أيام **العنصرة*** الحارقة، تستنشقها أم الخير كما أهل القصر بكثير من من الحنين لأيام الطفولة حين كانوا يشعلون ربطة نبات الحرمل، ويقفز الصبية على تلك الربطة المشتعلة، ثم تزين آذانهم بحلقات من قطران استعدادا لمواجهة صيف صحراوي حار .

كانت أم الخير قد عادت من منزل سيدها الشيخ عبد الله بعد أن نظفت وطبخت ورتبت ملابس سيدتها الياقوت أو كما تناديها "لالّة"، راحت ترش حوش الدار بماء البئر وتبلل جدرانا صهدتها الحرارة لتهجع إليها بعد الغروب.

فتح الباب الخشبي محدثا أزيز صدإ بعد طرقتين. كان عيسى يحمل طبق سعف تشمم خبزه المحفوظ بقطعة قماش أحمر.

-"خالتي... خالتي..".

-"ولدي عيسى... أدخل".

* هي مرحلة من الصيف تبدأ يوم التاسع والثلاثين(39) من فصل الصيف وتدوم 18 يوما كما يذكرها الأجداد ويعدونها.

لم يكن عيسى ابن الخمس سنوات ليحفظ أكثر من قوله:

-" أمي... تطلبك".

طبعت أم الخير قبلة على خده تستنشق فيه رائحة طفولة كانت لابنتها قبل سنوات، تحمل عنه طبق الخبز وقد جلس القرفصاء يراقب تحركات خطوط النمل الذي يسير في انتظام من الأرض إلى الجدران يقص أثر سكّر دسته أم الخير فوق خزانة المطبخ.

للقصر وقت العصر سحر جلسات عائلية على صينية شاي عبق بالنعناع، مرفقا بما تطهوه النساء من عجائن كل مساء, و"عائشة" أم عيسى لم تنس أن ترسل لجارتها أم الخير نصيبا مما طهت. هي تدري موعد عودتها من المنازل التي تخدمها فلا وقت لديها للطهي بعد يوم تقضيه في خدمة أهالي القصر، أو عائلات بحاجة لمن يساعد نساءها لمرض أو ولادة أو مناسبة. لم يقم حفل عرس في القصر العتيق إلا وكانت أم الخير سيدة المطبخ فيه، وراعية شؤون أهله، ولا وليمة أو وضيمة إلا وأبكرت لها بالحطب الذي يحرك محتوى القدور، لتعود منهكة بعد الظهيرة حاملة ما تكرم به الأجواد بما عنهم فاض من مأكل وملبس.

لم تكن أم الخير تكتفي بالطبخ والتنظيف، بل كانت تحمل حزم الملابس إلى الساقية كل فجر، لتكون أول من تغسل دنس أصحابها قبل أن تلوح خيوط الشمس. وها هي عائشة تدعوها للمنزل فتستبشر أم الخير بخدمة ورزق يحمله إليها غد جديد.

كان عيسى قد أنهى عبثه مع النمل بعدما حاول تغيير مساره بعودٍ في حجم حلمه، راح يتمتم كأنما سعيدا بنجاحه في بعثرته وإبعاده عن قريته، بينما ارتدت أم الخير اللحاف ممسكة يد عيسى، ردّت الباب الخشبي تشد أسفله بصخرة صوان، وراحت تماشي خطوات عيسى إلى منزله، يمسك بطرف لحافها كي لا تتيه خطواته، أو تبتعد هي عنه.

دخل عيسى مناديا أمه، بينما ظلت أم الخير تقف عند عتبة الباب تواصل النقر عليه إعلانا بقدومها. كانت عائشة قد وقفت تنفض بقايا الدقيق الذي انتشر على فستانها الأسود كهباق، تفك عقدة حزامها الصوفي وهي تناول ابنتها يامنة مفتاح الخزانة، تأمرها بإحضار كيس بلاستيكي أسود دسته داخلها.

-" مرحبا أم الخير، تفضلي".

ثم أردفت تسلم عليها:

-" أعرف أنه لا أحد يفك العقد التي لفتني أو يحفظ سري غيرك بعد المولى عز وجل، اجلسي أحكي لك العقدة التي ربطتها يداي وأبت أن تنفك ".

أسدلت أم الخير الحايك الذي كان غطى جزءا من رأسها وكامل جسمها، بعد أن تخلصت من البُوعوينة عند مدخل الباب، مبقية على حزامها الذي شد ما تبقى من الحايك إلى أسفل. جلست تمسح بمنديل أصفر فكت عقدته من الحزام، وراحت تجفف به عرق خديها وجبهتها ورقبتها، ثم تحركه بالهواء يمينا وشمالا قبل أن تعيد ربطه بحزامها. مدت يدها لكأس الشاي الذي يحضر بأوقات الأفراح كما الأحزان، كانت ناولته إياها عائشة، وراحت تستحثها كي تحكي:

-"خيرا يا أختي، أقلقتني".

-"وهل يرى الخير من يزور بوغبرة؟!".

ضربت أم الخير بكفها صدرها شاهقة وقد أفزعها ذكر اسمه:

-" بوغبرة؟ .. يا لطيف..من دلّكم عليه؟ شوكته وعرة وشره مستطير".

تنهدت عائشة تقلب نظرها يمينا وشمالا كأنما تطمئن لخلوتهما:

-"منذ أيام زارتني خالتي يمينة، حين رأت ابنتي زاهية استنكرت أن تكون في هذا السن غير مخطوبة أو متزوجة، فأشارت علي قائلة: عليك ببوغبرة، يجمد الماء ، ويكلم الطير في السماء".

تبتلع ريقها بحسرة:

-"اقتنعت بكلامها، أخذت زاهية عسى أن يرزقها الله بزوج صالح على يديه، والله يا أختي... قضينا نهارا كاملا تمططت ساعاته ودقائقه فلم تزدني إلا قلقا وخوفا خشية أن يتفطن زوجي الذي أوهمته بذهابي لمنزل أختي. بعد صلاة العصر، كان بوغبرة قد احتسى شايه وعاد ليواصل استقبال النساء وما أكثرهن! أشار علينا، فنهضت أمسك بيد زاهية التي كانت تحاول الاختباء خلفي، وقبل أن نلج استوقفني عند العتبة قائلا:

-" لتدخل صاحبة الشأن وحدها".

جحظت عينا أم الخير:

-" لا تقولي أفلتِّ يدها للشيطان يا عائشة؟".

زفرت نفسا كأنما طلع من كبدها:

-" أفلتهما يا أم الخير...أفلتّ وتركت صغيرتي لوحدها، كنت أقول في نفسي رجل الدين لا يغدر ولا يخون.." قاطعتها أم الخير عاتبة:

-" خسئ، إنه مشعوذ يتاجر سرا بشرف الغبيات، كيف لم تسمعي به، أخباره بخور جلسات النساء أينه من الدين؟".

صمتت قليلا، ثم عادت تواصل سرد ما حدث:

-" لا أذكر كم مكثتْ بالداخل قبل أن تخرج بهيئة غير التي دخلت بها. دفعت له ثمن تلك العقاقير التي وضعها بيدي، لم أسمع ما كان يشرح عن طرق استعمالها، كان همي أن نعود قبل أن يطاردنا آذان المغرب فيطردنا والدها، وقلبي يغرز سهام الندم داخلي على مجازفة كنا في غنى عنها، مجازفة قد تهدم بيتي إن انكشف أمري. سألتُ زاهية عما حدث ونحن نهرول كمجنونتين بين زقاق القصر، نتفادى أن يتقاطع طريقنا بوالدها الذي نحتت خطواته الطريق إلى المسجد، فلم تجب. عاودت سؤالها مرارا بعد وصولنا، فلم تقل لا خيرا ولا شرا عن ذلك الرجل، تتحدث عن كل شيء، تأكل وتشرب وتقوم بأشغال المنزل كما تعودت، غير أنها عند ذكر بوغبرة تخرص. أستحلفك بالله يا أم الخير أن تكلميها وتحاولي أن تعرفي شيئا مما يحدث، خصوصا وأن والدها حدثني عن خطيب سيزورنا هاته الأيام".

لم ترد أم الخير، كانت يامنة قد عادت تحمل الكيس الأسود الذي أحكم بشريط مختلط الألوان. فردته أمامهما عائشة بعد مغادرة وردة وهي تقول:

-" لم أقربه، تركته كما أعطاه لي".

لم تنظر إليه أم الخير طويلا، فهي تدري من نساء القصر كل ما يفعله بوغبرة، ومن أين يحضر عقاقيره المخلوطة بدم حيوانات يوقع بها النساء اللواتي أكل الجهل عليهن وشرب. دفعت الكيس من أمامها تطلب رؤية زاهية علها تعرف منها ما عجزت أمها أن تعرفه.

نهضت عائشة تتبعها أم الخير باتجاه غرفة خلف حوش الدار، أين جلست زاهية، تقشر البازلاء في صحن حديدي، بينما ترمي بالقصعة الخشبية قشورها، نهضت تسلم على أم الخير بينما تراجعت أمها وقد أقفلت خلفهما الباب. حكت، مازحت، نكتت وحين أحست من زاهية ارتياحا راحت تخبرها قصة بوغبرة وماذا فعل بإحدى الفتيات قبل أن تنكمش زاهية تضم بذراعيها ركبتيها وأم الخير تستحثها على البوح:

-" صارحيني بنيتي؟ ماذا فعل لك بوغبرة النجس حين بقيتما بمفردكما؟".

هزت زاهية رأسها نفيا وهي مذعوة، اقتربت منها أم الخير بالقدر الذي تمحى فيه المسافات بين أم وابنتها، مسدت شعرها بيد، بالأخرى شدت على ذراعها:

-" زاهية، لا تخافي.. لن يعلم أحد بما ستقولينه الآن. سيتقدم لك عريس عما قريب وأمك يأكلها الندم لأنها كانت السبب في ما تعانين".

حاولت زاهية كتم شهقتها لكنها فشلت هذه المرة، وتوزع الحزن المرابض بعينيها رعشات ارتشفتها أطرافها، ثم باقي الجسد.

ضمتها أم الخير تقرأ المعوذتين وتكرر سورة الفاتحة، حتى أحست زاهية تعود تدريجيا وقد مسحت بكفيها دموعها:

-"خـ...الـ....تي... أنا لم أفعل شيئا... هو... من...". وعاودتها نوبة البكاء لكن كمن شعر بالخطر واصلت هذه المرة وقد أدركت أن خلاصها هو الاعتراف مهما بدت في نظر أم الخير تافهة أو حقيرة. إننا نتضاءل ونصغر أمام الآخرين كلما امتدت أصابع الاتهام نحونا، فكيف إذا كانت التهمة شرفا مرغه السفلة بالوحل؟ حينها لا حل سوى الحقيقة تلك التي لا ترضى إلا بعريها في وجه المنافقين مهما كانت مؤلمة موجعة، وفي بعض الأحيان قاتلة.

-"إلى أي حد اقترب السافل منك؟" سألتها أم الخير وقد استشعرت استعدادها البوح.

-"عندما دخلت، طلب مني الجلوس بجانبه، ترددت...لكن .. امتدت قبضته وأحكمت ذراعي فأوجعتها. طلب مني أن أسلمه حامل الصدر خاصتي، قال إن شيطانه يطلبه ليجد لي عريسا، طأطأت رأسي خجلا، فعاود طلبه وقد خشن صوته، فأجبت إنني بدونه. هز رأسه غاضبا ثم طلب مني الاقتراب، فابتعدت.. غير أن عصاه امتدت لفخذي ....و...".

صمتت كأنما تداعت صور المشهد على ذلك الجدار الذي ظلت تبحلق فيه وهي تسرد ما حدث، دون أن تحول نظرها لأم الخير.

-"..و...؟" . قالتها أم الخير بخوف جلي هذه المرة.

-"جس أثر عصاه فخذي، وامتدت يداه تتحسس أنوثة صدري، قبل أن يرفسني برجله قائلا: تبحثين عن الزواج ولم تنضج ثمارك بعد؟ لعنة الله عليك وعلى هذا القوام الذي أتيتني به. سعفة ولا أنت....ثم قام لصُرة بالخزانة ربطها بخيط أبيض، سلمها لأمي وهو يربت على كتفي قابضا منها المال، بوجه بريء غير الذي رأيته بالداخل".

انفرجت أسارير أم الخير وهي تردد:

-" هل هذا كل ما حدث ؟ بنتي زاهية؟! أصدقيني".

انتفضت زاهية تجلس على ركبتيها، وجهها لأول مرة مقابل وجه أم الخير، راحت تقبل يدها وهي تقسم في بكاء وخوف:

-" أقسم بالله خالتي، أقسم بالله هذا كل ما حدث، صدقيني"، ثم وهي تنفي برأسها ويديها:

-" لم يحدث إلا ما ذكرت...رويته لك بالتفصيل".

أطلقت أم الخير تنهيدة عميقة، وزاهية على صدرها الذي تعرق فالتصقت به أطراف الفستان الفضفاض، ترتد إليها ملامحها شيئا فشيئا إلى أن انطفأ شبح الغبن، طمأنتها أم الخير وقد نهضت تبغي قارورة الماء بينما عادت زاهية تجمع قشور البازلاء قبل أن تفاجئها أم الخير، تصفع وجهها بالماء الذي جمعته بكفها مباغتة إياها كي تزيل عنها "الخلعة" فامتزج العرق بالماء وتنفست زاهية الصعداء بعد أن انفرجت أساريرها وعاد الدم يسري بجسمها بعدما بدا كأنه انحسر في الوجه حتى كاد ينفجر.

وفي ركن من المطبخ أين تربع المنسج منتفخ البطن، قصيرا، بانتظار أن يفتك من "الجبّادات" التي ظلت تكبله، و يرتاح من

ضربات الخُلّالة على رأسه، كانت عائشة تترقب قدوم أم الخير، تقرأ في ملامحها مستعجلة معرفة ما حدث. طمأنتها أم الخير بابتسامة قبل أن تجلس على الزربية وتسترسلان معا في حديث طويل ما كانتا تعرفان له نهاية لولا أن قطعه آذان المغرب، لتضم أم الخير حايكها مودعة، تقبل موسى الجالس على عتبة الدار يرقب خطوات المارة، تدخله إلى البيت قائلة:

-"أدخل يا ولدي، يطلق سراح الشياطين بعد المغرب، وقد تؤذيك".

يدخل مستسلما، يلوح لها بيده قبل أن تحكم إغلاق الباب وراءها.

"زينب... جرحي الذي يتفتق مع وجع كل بنت في هذا القصر"

زفرت وقد تخيلت زاهية زينب، لمن كانت ستحكي؟ من سيضم أفراحها ويداوي بالعناق أوجاعها. من سيخفف ظلم عمها، مَن غير أم الخير يداوي شوقها ، من... ومن...؟ أسئلة كثيرة ورّمت تفكيرها في خبث تلك اللحظة ولم تجد منها مفرا، إنه كبد أم منفطر يتفتق ألما، وقلب على مجمر الحنين يتلظى...يحترق...

"الهزات العنيفة لا تسقطك، إنها فقط تزيدك تشبثا بمن تحب"

على حافة الموقد الطيني القديم جلست مبروكة ترمي أعواد الحطب بصمت كأنما تحرقه وصورة زوجها سليمان الذي غادر باكرا يتفقد كعادته القطيع غير مبال بتوسلاتها ولا برجائها الذي كثيرا ما كان يبصقه على الحائط في اشمئزاز يمزق قلبها. والدها يعد أيامه الأخيرة ولا ترجو غير استعجال زيارته. كان زوار الولي الصالح الذين وفدوا من المدن الهضابية المجاورة لإحياء ليلة المولد النبوي الشريف قد أخبروها بمرضه ودنو أجله، بينما زوجها الذي لم يكن زوجا إلا للضرورة، آخر اهتماماته معاناتها وأوجاعها، لم يعبأ للأمر كثيرا حين أخبره قريب من الوافدين.

كان الطفل منصور قد استيقظ لكنه ظل واجما بفراشه يبحلق في ذلك الجدول المنسكب بخجل على خد أمه، متسائلا عن سببه في هذا الصباح الباكر. حين انتبهت إليه جففت حزنها بطرف كمها وأومأت إليه بالاقتراب. دخلت زينب تحمل طست الماء لتضعه على النار، تتثاءب قبل أن تفتح عينيها على صورة أخرى للحزن الذي ظل يرفض مغادرتهم.

-"خيرا زوجة عمي، ما الأمر؟".

- "والدي يحتضر، وعمك يرفض أن يأخذني لرؤيته".

-" لا حول ولا قوة إلا بالله".

صمتت قليلا ثم أضافت:

-" لكنك كنت هناك منذ شهر فقط واطمأنَنْتِ عليه، ألم تتركيه بخير؟".

حركت مبروكة رأسها إيجابا وابنها يشدها من رقبتها محاولا اعتلاء ظهرها بفرح دون أن يفهم تماما ما تقول والدته:

-" بلى، تركته بخير، لكن قال محمد ابن خالتي إن صحته تدهورت أكثر من الأول، ولا يقدر الآن حتى على الكلام".

ردد الطفل خلفها في محاولة لاستظهار ما تعلمه من كلمات:

-" لا..يقدر.. على الكلام..."، نهرته أمه تنزله من كتفها، وعيناها اللامعتان حزنا كأنما تتوسلان زينب.

-"اذهبي مع مسعود ابن عمي، لن يرفض... متأكدة". قالت زينب بعد أن وضعت الطست على النار، تكمل ما بدأته مبروكة من إعداد الإفطار قبل أن تنهار حزنا وغيضا.

ردت مبروكة محمرة الجفنين ضاغطة بطرف خمارها عينها كأنما تعتصر ما تبقى فيها من دمع، ثم تجفف سوائل وجهها كلها:

-"عمك لن يوافق، وكأنك تجهلين قسوة أعمامك!".

لم ترد زينب هذه المرة، ولا انتبهت لعودة دموع مبروكة التي انفلتت بغزارة، كانت صفعة عمها مسعود لا تزال مرسومة كختم على خدها. واصلت رفع القهوة من فوق الكانون واضعة المصفاة على الإبريق يتسرب سائل القهوة أسود داخله، تاركا بقايا توابلها عالقة بالمصفاة، ترتب الفناجين على طاولة خشبية بنية صغيرة، لا تصلح لغير هذا الغرض ثم اتجهوا جميعا أين تنتظرهم الجدة وقد فرغت من تسبيحاتها .

دخل سليمان بعدما أرسل القطيع مع راعي الحي ساحبا نعله عن عتبة الباب، باتجاه أمه يقبل رأسها في طقس يمارسه كل سكان المدينة حتى وإن لم يكونوا بارّين حقا بأمهاتهم، ثم راح يفطر بشراهة وكأنه لم يتناول شيئا منذ أسابيع. مبروكة ترمق باستعطاف حماتها التي توسلتها أن تليّن قلب ابنها ليسمح لها بمعانقة الأنفاس الأخيرة لوالدها. حماتها هي الأخرى بحركة من رأسها أومأت لمبروكة بالانصراف حتى تكلمه على طريقتها.

فهمت مبروكة، كتمت شهقتها بوشاحها، وكشبح ذابت خلف جدران المطبخ. أما زينب فأنهت فنجانها تبتلعه بالخبز على عجل لتلحق بمبروكة. وحده واصل إفطاره كبهيمة لا تفكر في

شيء. استطاعت الحاجة صفية أن تفتك من سليمان تأشيرة قبول بعد أن استقر الرأي على مسعود ليكون مرافقها، وعلى عجل حملت مبروكة كيس ملابسها الذي كان معلقا بانتظار الموافقة مغادرين القصر.

عادت زينب وقد أنهت ترتيب المنزل وإعداد الغذاء تستأنس بحكاية جدتها التي ألحت عليها هذه المرة أن تروي لها عن والدها الذي مذ سافر للعمل في الصحراء لم يعد يشده الحنين كما كانت الجدة تردد. أعادت شد فولارتها وربطها من الأمام، اعتدلت كأنها ستلقي خطبة ثم قالت:

" أبوك يا زينب ولد رجلا، لم يكن يهاب أحدا وهو لايزال طفلا، حتى فرنسا المتوحشة آنذاك. أذكر ذات صيف قبيل الاستقلال بسنتين أو ثلاث، كنت وحماتي بالخيمة أطهو ما جادت به السماء علينا من كمأة على قدر غلت مياهه، وارتفع دخان حطبه. كانت حماتي تستل المرود لتكتحل حتى رفع علينا ستار الخيمة بعنف أفزعنا. كانوا أربعة من جنود الفرنسيين يشهرون أسلحتهم نحونا يتقدمهم رجل ببرنس أبيض ملثم، لا يبدو منه غير عينيه الزرقاوين تلمعان خيانة، راح يترجم لنا ما يأمره به أسياده. كنت تعرفت عليه بسهولة فقد كان الوحيد في منطقتنا بعينين زرقاوين. اقترب أحد الجنود وصوب بندقيته نحو حماتي يسألها

عن تلك المادة السوداء التي خالها بارودا أفرغه على رأسها وصفعها قبل أن يمرّغ بحذائه وجهها، فتسف التراب.

كنتُ تعرّفت على زرق العين اللعين ولد الضاوية، وأدركت أنه وشى بجدك حين راح الجندي يسألني عن مكان فراره، ابتلعت لساني فصفعني الحركي الحقير زرق العين، بينما لم أتمالك نفسي ومصمصت ما تجمع من لعاب بفمي أبصقه حقدا وأنا أسبه:

-" الله يلعنك يا الحركي الكلب، الله يلعنك يا الشماتة".

وقبل أن أكمل كان أحد الجنود قد رمى بفولارتي وجرّني من شعري قبل أن يتركني كومة وجع من ركلات بصم بها بطني وفخذي.

الظلم يعصر القلب وجعا ويفتت بقاياه، وما أعظمه حين يكون بتواطؤ مع بني جلدتك، يصير حقدك مضاعفا ينخر روحك نخرا. كنت لا أزال مرمية على الأرض يرمقني زرق العين بغِلٍّ كبير شامتا، وقد ضاقت عيناه في ابتسامة ماكرة حين رأى جنديين يجرانني، ضربا زوجي ووالده الشيخ بولحية، ليتقدم قائدهم ويمرغ لحية جدك بفحم الموقد الذي انطفأت نيرانه بعدما انقلب محتوى القدر عليه. هالني المنظر كما هال والدك الذي سحبوه طفلا من خلف الخيمة أين كان يجمع الحصى، يعد به عنزات مارس عليها طقوس الرعاة. راح يركل برجليه الصغيرتين ساق

الجندي ودون أن يتردد زرق العين رماه خارجا وقد أطلق كلبه خلفه فركض والدكِ وقد عضه من فخذه كلب الكلب . ظللت أياما بعدها وشهورا أضمد جرح والدك بالرمث تارة وبالعرعار أخرى. لا يزال أثرها موشوما بفخذه إلى اليوم.

عمه لخضر نصحه أن يسجل بقائمة المجاهدين المستفيدين من المنح لكنه رفض وقال أجري عند الله. أنا لم أدافع يومها عن الوطن كي أنال جزاءً ، أنا كنت أدافع بصدق عن كرامتنا جميعا ".

اعتدلت زينب في جلستها وقد عاودها شوقها لوالدها، ترمق الجدة باستعطاف كي لا تتوقف عن الحديث. ذاك الذي يقولون عنه العزوة والسند حرمها هو الآخر حنانه وحمايته. تستدرك الجدة:

-"بعد الاستقلال كان جدك وأصدقاؤه قد خرجوا طالبين أعناق الحركى ذبحوها واحدا واحدا بأعلى قمة جبل عنتر، وظل زرق العين جرذا يفرّ بثوب امرأة إلى أن خرج من الجزائر بمساعدة مَن فرّوا مع فرنسا مدنَّسين بعار الخيانة. لم نستطع نسيان خيانته ولا شفينا منها".

استفاضت الجدة في سرد حكايات كثيرة لزينب حتى تلك التي لا علاقة لها بوالدها. كانت وهي تحكي تتجاوز مرحلة زواجه من أم الخير؛ كيف عاشا وماذا قالا أو فعلا. دوما تتوقف بالمراحل التي كان بها عازبا وإن حدث وسألت زينب عن علاقة أبيها بأمها فإن خاطرها يتكدر وتغير الموضوع، ثم ترسل زينب في شأن من شؤون البيت رادة بذلك الباب العتيق الذي أحكمت إغلاقه بمفاتيح حديدية ظلت أصوات رنينها تهز قلب زينب هزا فتطحنه صمتا وغربة.

مضى شهر تغربت فيه زينب بعودة عمها الذي أعاد مخطط يومياتها كما يشاء. تغمره نشوة الانتصار كلما رآها تحمل الغسيل الذي كدسه بركن الحوش، أو تمسح حذاءه الخشن الذي تعفنت رائحته. في قلب هذا الرجل بغض لكل التاءات، سادية رهيبة تجعله يزأر فرحا لولا تذكره أن زينب تفوقه بمستواها الدراسي، العقدة التي لم يتحملها ولم يجد حلا لها سوى الكراهية والانتقام.

كان صالح قد عاد من أرض توات يتفقد المشتري الجديد الذي أرسل في طلبه، مكث يومين عند خالته يتقصى أخبار عمه مسعود الذي تأكد من سفرته قبل أن يدق باب الشوق، حاملا بخورا وعطورا وملحفة تداخل لون الرمل فيها بحمرة الطين. فتحت زينب تعقد المفاجأة حروفها فلا تنطق، دنا يزرع بخدها

بِتلّة فتوردت. قالت تسند ظهرها للجدار القصير مخافة السقوط:

-" صالح!".

كتم بسبابته صوتها، فارتد شهقة اهتز لها كامل كيانها قبل أن تتهاوى بين يديه. كانت تلك الهزات قد انتقلت إليه، طوقها لأول مرة بين ذراعيه، كما لم يفعل في حياته. همست:

"صالح.. تجتاحني هزات عنيفة .. تكاد تهوي بي لمكان سحيق" .

وشوش لها واثقا:

"الهزات العنيفة لا تسقطنا، إنها فقط تزيدنا تشبثا بمن نحب"

"الفراشات رغم ضعفها لا تنحني.. إنها فقط تحلق.. تطير.."

إنه الخريف... رائحة مطر تعبّق فناء الدار دون أن تمطر، وبريقٌ بالعيون ينبئ بمواعيد شاحبة لازالت تعانق الأمنيات فيها ثرثرة الشوق... وأنا لا علاقة لي بكل هؤلاء... وجهتي كانت أمي، محرابي عيناها الكحيلتان وشعرها الفحمي المنسدل على كتفيها، تقف أمام المصور في شموخ. وبعض من ورق تركته مدسوسا بصندوقها الصغير، كلما فتحته طلعت رائحة الذكريات مدثرة عقد عود النّوار، أمرغ بفولارتها وجهي وأظل أرقب طيفها، قد يطلع من نافذة الغياب، تلك التي زينتها بستار أبيض ظل شاهدا على مرورها من هنا حتى وهو يذبل ويحول، أرقبه كطائر قد يحط على أبواب القلب المشرعة بانتظار معجزة ما تأتي إلي بأمي.. أو طيفها.

كل الأماكن بغيابك غربة، وأنا الغريبة بين أهلي أواري خيباتي وسادَتي، كل العالم يواري خيباته صدر أم، فأينه صدرك أمي أدفن فيه جمر هذا الحنين؟ أين ابتسامة منك تطهر هذا الفؤاد العليل وهاته الروح التي لا تلتم أبدا، كلما توهمتني أتوهج فرحا هبّت رياح من المدينة التي تسكنين فيرتجف نور فرحي أراوده بكفي كي يصمد، لابد أن يصمد إلى يوم لقاك، فمتى يا زهرة الروح موعد اللقاء؟

ها هو صالح عاد إلي محملا بالطفولة، يحاول أن يزرع داخل روحي فسيلة تمحي عنا غبن اليتم، علنا نجني تمر النسيان غير أن الباب الموصد الذي يحجز الذكريات يتآكل يوما بعد آخر ليطل من بين شقوقه يُتم غربتنا ورغما عنا يسكننا.

لا أدري أماه ما يحدث لي هنا، مع جدة لم أفهم بعد علاقتي بها ولا لماذا تصرّ على محو اسمك من عالمي. كأنني أقبض على الصباح بيد من جمر أخاف أن يتسرب نوره.. أن يتلوث بأنفاس الآخرين... كل شيء فيه خام حتى قهوته... ذاك الصباح الذي رغم قِصر ساعاته يأتيني محمّلا بذكريات فيها من الحزن والألم ما عجز القلب عن مداراته.

رحلتِ بعيدا كما رحل صالح ورحلت عمتي مسعودة، الأرواح التي كنت آنس بها، أستعذب حديثها، يصفو لها قلبي وترتاح لها نفسي رغم القهر والمرض كنت أتشبث بأطيافها خوفا من أن ترحل على غفلة منّي وتتسرب كما الزئبق. كنت أحب التفاصيل الصغيرة معكم، أدوّنها في حضرتكم فأرتاح قليلا. تلك التفاصيل التي كانت تترسب في ثنايا الروح وساعة أبكيها على الورق يرتاح القلب ويخف عنه عبء السنين. الآن... الأرض ملآى بالضجيج، بأشباه الطيبين، لكنها تتمثل لي خالية بغياب من كنت

أتكئ بوجع على خيباتهم فيضحكون، يعيدون الابتسامة لشفتي والاطمئنان لقلبي.

كبرت يا أمي، كبرت أوجاعي، اختفت براءة ملامحي، تضاعف العبء بعودة عمي الوحش، ذلك الذي لا يشبه والدي في شيء وأحمد الله أن والدي لا يشبهه. كبرت يا أمي ولم تري كيف أصبحت ابنتك زينب عروسا تنتظر أن تزفها إلى صالح، كبرت ولم يُشف حضني الذي ظل يحن لحضنك، ولا جفت وسادتي التي أبحثُ دمعي عليها طيلة ليال خلت من رائحتك، كبرت ولم تزغردي بأذني يوم بلغت كما زغردت لبلوغ ابنتها جارتنا حليمة.. كبرت .. ولم يكبر داخلي شيء غير جرح شوقي الذي صار يزداد اتساعا.

أمي، يا وجع الكلمات التي لم أقلها لك، ووجع الورق. ماكنت لأفهم معنى أن يحتويني صدرك، وأنا مع جدتي التي حدثتني عن الجميع إلا عنك، ما كنت لأعرف معنى أن تخاطري وتتبعي خطواتي الصغيرة وهي ترسم رقوما مختلفة أمام باب الدار، كنت أحسبني شفيت منك يوم غادرتني تملئين رئتيك بعطر براءتي وتتوسلين جدتي كي تصحبيني معك. اليوم فقط بمجيء بدرة ابنة عمتي أدركت عمق الشرخ وأنا أتلمس قلبي كلما أتى لسانها على ذكر اسمك، أخبرتني الكثير عنك بعيدا عن رقابة جدتي وسوط عمي الوحش الذي غادر منذ أيام بلا وجهة، حسبي أنه غادر.

أخبرتني بدرة ما لم تكن جدتي لتخبرني به، كانت تتحدث وقلبي يصغي شوقا، كنت أتابع كلماتها كأنما أتبع طريقا يؤدي إليك؛ منها عرفت بأي أرض تعيشين، من تزورين، كيف تخدمين أهالي القصر ليلا ونهارا حتى توفري لك لقمة عيش تقيك ذل السؤال. وبكيت لأول مرة حين أعادت سرد قصة الحلوى التي أهديتنيها يوم علمتِ بمجيئي وكيف - طاعةً لجدتي- بعثرتُها أمامك وقد أمسكتني من يدي بعيدا عنك.

بدرة كانت تعتقد كما أوهمَتها جدتي أنني أرفض لقاءك، بدت واضحة دهشتها لرؤية دموعي التي راحت دون استحياء تشرع نوافذ غبني، مدت يدها تزيل هالة الحزن وقد وعدتني إن رأتك أن تبلغك شوقي وحنيني.

الآن... بت أعرف أنك النخلة الشامخة رغم رياح الدهر التي تلوحها يمينا وشمالا، بت أفخر كوني ابنتك حتى وإن كادت تمحى من ذاكرتي تفاصيل وجهك، يكفيني أنني أحفظ مكان الشامة الخضراء التي تربعت يمين خدك، والمنديل الأحمر الذي كان يغطي شعرك دائما، حتى وأنت بغرفة النوم.

أجمل ما حفظته من كلام بدرة قولها:

-"أمك تجول بين ديار القصر فراشة محبة، تغسل، تنظف، تطبخ، لا تشتكي أبدا، يحترمها الجميع ويستشيرونها حتى في شؤونهم الخاصة".

أحببتُ وصفَها لك بالفراشة، في سري، أدرك تماما أن الفراشات رغم ضعفها لا تنحني.. إنها فقط تحلق.. تطير..

"وفي مواسم الهجرة... تتقاطع رحلات الطيور..."

" يااا رانا خَاوَة وعمُومِيّة

ونْكَمْلُوها بالنْسُوبِيّة"

بهذه الأهزوجة دخل موكب العروس وقد أشرعت له أبواب القلب قبل الدار، أم العريس وخالته في المقدمة، خلفهما نسوة بمختلف الأعمار يزينهن اللباس الصحراوي ودكنة المسواك على شفاههن. استقبلتهن أم العروس بمبخر في يدها ترمي بين الحين والحين قبضة بخور بحركة دائرية ليعم عطره القادمات، بجانبها أختها تحمل قارورة عطر "FA" ترش به كل واحدة منهن مرحبة، بينما التفَّت البقية حول الضيفات ببناديرهن وتصفيقاتهن وهن لا يزلن بحوش الدار.

أم الخير الحاضرة دوما بمناسبات القصر، كانت دخلت قبلهن بساعة أو أكثر تحمل حزمة أخفت لباسا حريريا أبيض، جل نساء القصر قد لبسنه ليلة الحناء أو يوم زفافهن تبركا بصاحبته الضاوية الشريفة التي أحضرته من الحج، تشد طرف ثوبها السفلي لأعلى بحزام خصرها فيظهر سروالها الفضفاض من الشاش يخفي الساقين. أفسحت لها النسوة الطريق نحو غرفة

العروس لتتم مهمتها في الإشراف على استحمامها وتطييبها ومباركتها بلباس الضاوية الشريفة.

دخلت الغرفة المزينة بكل شيء إلا بعروسها التي جلست القرفصاء على **الهيدورة*** البيضاء تخفي وجهها بمنديل حريري أحمر ساحت عليه قطرات دمع اتحدت بالكحل.

-" سامية ... ابنتي...أنت بخير؟".

لم ترفع رأسها، كنعامة أخفته قبل أن يرتفع نحيبها. أدركت أم الخير أمرا جللا. سحبت من حقيبتها ماء ورد رشتها به، رافعة وجهها المحتقن تستجدي منها بوحا تفك به خيوط المسألة. سامية لم تزد أن قالت:

-" لا أريد أن أتزوجه يا خالتي... لا أريد".

تنهدت أم الخير تحاول تهدئتها:

-" الزواج زينة الحياة يا ابنتي، ومحمد من خيرة الرجال، فقط البدايات مربكة لكنها جميلة، إنه يوم فرحك ".

* سجاد يصنع من جلد الغنم.

ثم أضافت تمسح دمع العروس بمنديلها بعد أن فكت عقدته من حزامها:

-"البكاء فأل شؤم ، تعوذي من الشيطان".

لو توقف الأمر عند الارتباك والقلق كما قالت أم الخير لبدا عاديا، غير أن فؤاد المحب حين ينشطر ينزف بعمق، ودون أن تخفي وجهها هذه المرة نظرت مستعطفة:

-" خالتي، أنا لا أريد محمد، أنا علقت بسفيان، سفيان سينهي الخدمة الوطنية بعد شهرين، وسيأتي ليتزوجني...".

قالت بتعلثم ثم عاودت النحيب على ذلك المنديل الحريري الأحمر، وأم الخير تواصل تزيينها وتطييبها تسابق العمر كيما تسلمها في أبهى حلة للنساء القادمات بموكب العرس اللواتي كن قد توقفن عن الغناء والتصفيق منشغلات بجلسة شاي يتبادلن فيها الأحاديث والأخبار. قلب أم الخير يعتصر ألما على سامية، تواسيها حينا وتصمت أخرى، في سرها تدرك أن سفيان لن يكون لسامية حتى وإن لم تتزوج الآن، هو لا ينتمي لعرشها ولن يشفع له كونه ابن أكبر طبيب في المدينة. لهذا ظلت عاجزة عن قول شيء، تكفكف دمعها حتى لا يسيح الكحل الذي أعادت رسمه مرتين.

قبل أن تُساعدها على ارتداء فستان الضاوية الشريفة وترفع أسفله عن المبخر قليلا ليطلع دخانه الآسر ويسكن جسدها ولباسها معا. كانت حينما فرغت عانقتها بحرارة أمّ تشدها من ذراعها لتزفها:

-"ستنسين سفيان منذ هذه اللحظة... أنت زوجة محمد وفقط... الأيام كفيلة بردم العواطف يا ابنتي... الأيام كفيلة بالنسيان".

إن أكثر الذكريات قسوة ووخزا في الذاكرة هي تلك التي تتفحم فيها قلوبنا ألما يهدينا قربانا لوساوس الليل الطويل، إنها تلك اللحظات التي تمنينا لو أنها لم تكن، لو لم يرسمها القدر لنعبرها كرها، فكيف بذكريات نُقشت بأيامها ولازال بابها مشرعا تتفرج من خلاله على حبها الموؤود وبالقلب غصة تبتلع الأسئلة؛ لماذا؟ وكيف؟

لم تزدها هاته الكلمات سوى نحيب أخفته حين همتا بالخروج وقد رفعت رجلها اليمنى تتخطى عتبة الغرفة، ممسكة يد أم الخير التي ظلت تردد:

-" بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله.. " .. وحين ولجتا غرفة الضيوف أين كانت النسوة تنتظرن العروس، راحت بصوت مبحوح تعلن عبر إحدى طقوس الأعراس عن حمامة تزينت وقدمت إليهن:

"يا وَسْعُوا لمْرَاح ... فين يرُوج لحمام"

بزهو ترد الحاضرات رفقة تصفيق وضرب على الدفّ يأتلف فيه إيقاع الحيدوس بالكلمات:

"مانيش برّاني... خَلُّوا لحمام يرُوج"

ابتسمت سامية لأول مرة بوجه الحاضرات اللائي رحن يزغردن ويصفقن بحرارة احتفاء بقدومها، ابتسمت وخلف نافذة القلب المنكسر يسكن وجع رهيب لا علاقة له مطلقا بتلك الابتسامة. بينما ظلت تردد مذبوحة أم الخير وهي تسلم العروس حماتها، تُجلسها على كرسي توسط المجلس قبل أن تودع قريباتها إيذانا بالرحيل:

"الناس الزّينين داروا بينا

داو الغزال وصَيْلوا* منّا"

تحضر زينب طيفا يبدد بهاء نوره الحاضرات، تراقصها أمها الموبوءة بالغياب، تحضر زينب في كل مناسبة بالقصر، تزين بابتسامتها الأعراس، تحضنها أم الخير بكل الشوق الذي تراكم بالقلب حتى أضحى إبرا تنغرز بكامل الجسد، تتعالى ضربات الدف مع قلبها وهي ترقص أمام العروس، غائبة عن الجميع، وحده طيف زينب يراقصها مبددا صور الذين راحوا يخرجون العروس وقد علت الزغاريد أردفها من خلف باب الدار صهيل البارود.

"تبقاو على خير يا دار باباها

انتوما ربّيتُوها و احْنا ادّيناها"

تبكي سامية وجع الفراق، تبكي أم الخير والقريبات، يبكي القصر حبّا داسته أقدام أعراف لا تعترف بالحب.

يخفت صوت الفرح بخروج العروس، تسكن الدار هالة حزن يطبق عليه صمت رهيب وقد تثاءب المساء، تنتحب الجدران التي ألفت ضحكات سامية وبراءتها وحكاياتها مع المذياع المعلق

* أخذوا من أصولنا.

بالمطبخ الذي كانت كلما غابت موجاته تتبعتها بشوكة غرزتها مكان سلك التردد.

تعود أم الخير ترتب ما تبقى رفقة بعض أقارب العروس، لا تكاد ترتاح بملحقها إلا مع صلاة المغرب. تفكر في مصير سامية؛ كيف لها أن تنام أول ليلة بين أحضان رجل لا تعرفه، وقلبها معلق مع حبيبها سفيان؟ أي قدر هذا الذي يبتلع أحلام البائسات وأي فجائع ظلت تنحر قلوبهن غير آبهة بأصوات الوجع التي كانت تبتهل ليل نهار، لا تبتغي غير قلوب أحبتها بصدق.

وقبل أن ترمي بحايكها الذي فكّت عقدة حزامه على حبل الغسيل بعد عودتها، اضطرب قلبها لدقات بطيئة ظلت تنقر باب منزلها الصغير، "دقات الليل إما زائر غريب أو خطب شديد ألمَّ بحبيب"، هكذا تمتمت قبل أن تسأل:

-" مـــــن؟".

تقترب أم الخير من الباب، وقلبها على مقولة أمها حين تفزع "خيرا يارب... اللهم اجعله خيرا"، تعيد سائلة من الطارق، بلهفة يجيب:

-" صالح يا خالتي... صالح ابن الحاج الطاهر" .

شيء ما أرجف القلب الذي ظل سنوات يجبر كسر الروح بانتظار طائر يرفرف حاملا شيئا من أثر زينب، زينب زهرة العمر التي تفتحت بعيدا عنها لكنها أبدا ما غابت لحظة عن عالمها، زينب الملاك المكسور الجناح الذي يفتش كل ليلة عن هوية حدودها أم الخير الوطن. في صالح بعض منها، من براءتها، من طفولة محرومة وذاكرة مبتورة امّحت منها ألوان الصور. لم تدر كيف ركضت خطواتها ولا كيف فتحت الباب حتى وجدت ذراعيها تحضنان صالح الذي راح يقبّل رأسها متبتلا مشتاقا.

-"زارتني البركة حبيبي، مرحبا بولدي العزيز، مرحبا بالذي يحمل لي ريح زينب كما حمله قميص سيدنا يوسف لأبيه يعقوب".

الغربة مُرة مرارة الموت، وسجن الأسئلة لا يشفي جرح أم فقدت كبدها وهو على قيد الحياة. أم دفنت أحلامها كلها مقابل أن يتحقق حلم واحد .

ها هو الفرح يجلس مقابلا للذاكرة، يتزين في حضرة اللقاء الذي جاء مباغتا يهدي العمر سنابل ملآى كانت حباتها نضجت على صهد الشوق والانتظار. صالح "الزرزور" كما كانت تلقبه زينب، الطائر الغريب الذي يفني عمره بحثا عن عش، عن أسرة، عن وطن، ها هو يفرد كتابه المحمّل بأخبار زينب أمام أمها التي لم تتوقف عن الأسئلة، انتبهت تمسح دمعها بمنديل مشدود لحزامها، منديل تجفف به عرق الشقاء حينا، ودموع الانتظار أخرى، هي اليوم تفك عقدته لأجل أن تدثر به دموع الفرح كما لم تفعل من قبل.

آذان العشاء يغطي ليل القصر بصوت الشيخ عبد الله، أوقف شريط الأخبار إلى حين، راحت على عجل تعد لقمة لصالح بينما كان يتوضأ قاصدا المسجد العتيق وكله انشراح، كأنه أزاح عنه صخرة الحنين التي ظلت تهدّ كتفه سنوات ويتربع ثقلها بقلب زينب الملتاع انتظارا.

ليلة حافلة بالبشرى قضياها معا يستذكران ما مر، حلو ومر، يضحكان، يبكيان، وعلى قمر الآمال يطرزان موعدا لأعز لقاء.

تحدث صالح كثيرا مع زوجة عمه، آخر وعده لها قبل أن يغادر هو أن يحضر زينب إليها وهي على ذمته.

-"ما نكون صالح ولد الطاهر إلا إذا جبت لك زينب وهي حلالي وزوجتي يا خالتي ".

ودعته أم الخير تخيط له برنس فرح تزينه به حين عودته وترسل سلاما بحجم شوق كل الأمهات إلى الغالية زينب.

"لا حاجة لمزيد من النور فقد انكسر ظلك بمرآتي"

على مائدة غذاء أدراري، خبز **قُلة***، حليب وتمر، وتحت ظل نخلة تفتق ذكارها، افتتحت ميمونة قولها تحدث زوجها عن رغبة ابن أختها صالح الزواج من ابنة عمه، وبفرحة أب سيزوج ابنه البكر رد الطاهر قائلا:

-" انتظرت هذا الخبر كثيرا، ما أسعدني به وزينب ابنتي هي العروس".

صالح الذي وقف خلف جدار غرفة الضيوف، ما إن سمع رد والده حتى فضحته خطواته مغادرا يحمل بين كفيه سعادة العمر، ابتسم الطاهر بينما عادت تمد يدها ميمونة لتدس لقمة محبة بفمه، كان اعتادها كلما رضيت عنه أو اشتاقت بعد سفر طويل.

وأما زينب فبين سحابات الصمت ترقد هزائمها بانتظار فجيعة ما تغير مسار حياتها، ممددة على فراش جدتها التي غادرت صباح اليوم في زيارة لأختها التي عادت من الحج. تفتش بنظرها عن

* خبز يطهى فوق القُلّة.

أثر ما لأمها، قد تجد شيئا بخزانة جدتها، راودتها فكرة فتح الخزانة، لكنها تعلم أن ذلك بعيد المنال، مفاتيح الخزانة تتراقص دوما بحزام جدتها، ما فكتها يوما عنه حتى وهي تفتح الخزانة، تكتفي بإرخاء الحزام ثم إعادة شده من جديد.

صوت رعد قادم بلا موعد، ومطر بلل خد مبروكة في رجاء، صوت الرعد لم يتوقف، ظل يقترب نحو حجرة الجدة، قلب زينب ينقبض لحدث وشيك، هي تدري ما يخلفه هذا الصوت من خراب، صوت مبروكة المبحوح كأنما يلتصق بصوت الرعد الهادر الذي لا يلتفت، كانت تردد في رجاء:

- "بجاه النبي خَلّي عنك اليتيمة... بجاه محمد لا تلمسها".

كجندي قفزت من مكانها دون خوف، جدتها ليست هنا لتحميها من هذا الوحش ووالدها الذي ما عاد يدري عنها بعد أن سافر بحثا عن حياته الجديدة، بينما صالح حبيبها في أرض الله الواسعة ينقب عن الحلول ويتخذ الأسباب.

كان عمها دخل مزيحا شبح مبروكة في غضب، شادا شعر زينب يجرها إلى الحوش كأنه يرغب في إخفاء جرمه عن أمه فلا

ينهال على زينب بحجرتها، ظل يشدها من شعرها وهي تصرخ، رماها على الأرض ووجه سيف اتهامه الذي أشهره:

-"من أين تعرفين ابن الكافر ليسألني عنك؟! أين التقيته؟ منذ متى تعرفان بعضكما؟".

عقدت الدهشة لسانها، لم تستوعب بعد كلماته، من ابن الكافر؟ وأنّى لها أن تعرف من سأل عنها. كل ما تعرفه هو حبها لصالح وانتظارها ليوم تخرج فيه من هذا البيت عروسا تزف إليه دون غيره. لم يترك لها فرصة الكلام كان لطمها على خدها في سادية غريبة قبل أن يبصق بوجهها وقد قدحت عيناه شرا. نظرت إليه بحقد واشمئزاز هذه المرة، هو الذي لا تخاطبه إلا ورأسها للأرض في مذلة يستلذها، اليوم استطاعت أن ترى الشرر الذي نزفته عيناه بعدما عادت صور تلك الليلة تنقر بإلحاح على ذاكرتها.. نفس الأنفاس التي كتمت صوتها و أتلفت ارتجاج صدرها تعاودها اللحظة بشدة... صورته وهو يزحف نحوها ببطء... يتسلل داخل فراشها ... يمد يده إلى حد ما كانت تعلم مداه إلا حين طلعت تنهداته كنهيق... وما هو بنهيق. خوفها وارتعاشها ثم انكماشها باكية بعدما تسلل كمجرم من تحت فراش طفلة في

العاشرة لم تدرك بعد معنى أن يندس رجل بفراشها متسترا بظلام الخيانة والغدر.

بكت كثيرا ليلتها... لقد كان فراش أمها شاغرا... غير أن القلب لم يمتلئ بغيرها حتى وعمها الوحش يدنسه بأنفاسه التي لم تعرف لها رائحة غير النتانة. تنظر إليه الآن بحقد دفين انفجر بعد مُداراته سنوات وسنوات... ثم تورم على شفتيها لتبصقه في وجهه دفعة واحدة.. وكما لم تفعل يوما أو تتخيل.

لم يزده ذلك إلا توحشا وغليانا كان لمبروكة نصيب منه، قبل أن يتركهما للنحيب راكلا ما عثر خطواته أثناء ذهابه حاملا معه انتصارا لعقدة سكنته منذ صباه. وحدها مبروكة ظلت تمسح على وجهها، تبكيها تارة وتربت على كتفها أخرى... لطمت زينب وجهها، انتحبت، ناحت:

" وينك يا لميمة طلي على حالي... وينك ولد عمي شوف ما جرى لي.."

تطوقها بذراعيها مبروكة، بمنديلها الجاهز لدموع الوجع تحاول أن تجفف عينيها الذابلتين، غير أن الألم كان أكبر من

المواساة... نظرت إليها زينب بانكسار حاولت أن ترممه بحضن مبروكة كأنما تشم فيها رائحة أمها، وكما الغرباء... قهرا تبكيان.

خرج مسعود منتفخ الوجه وقد تمددت الشرايين برقبته غضبا، لم تكن له وجهة أخرى غير زريبته يدفن فيها وجهه بعيدا عن نظرات أصحابه الذين تفرقوا من حوله كلما رأوه بمجلس في الحي، مذ عاد لهم بوجه جديد أكثر قسوة وتعاليم لم يعرف أحد ممن تبناها حد العبودية، هو الذي مذ فتح عينيه لم يجد أحدا يجالسه أو يصغي إليه، كل الصور التي حفظها لا شيء فيها يبعث على حب الكائنات الناعمة، وحدها أمه ظلت مقدسة عن جميع النساء حتى وإن لم تحضنه أو تلاطفه في صباه كثيرا كما كانت تفعل زوجة أبيه الياقوت مع أخيه، لا يذكر الكثير من الصور غير تلك التي رسخت بالذاكرة فأبت أن تمّحي رغم محاولاته الفاشلة في تمزيق الذاكرة،

كان مشهدا يتكرر بأوقات متشابهة، حين يسافر والده للمدينة تاركا الخيمة الكبيرة تحت رحمة عمه بوعمامة الذي يتولى أمر كل النسوة فيها، على رأسها زوجَتَي أخيه صفية والياقوت، يضربهما إن تأخرتا عن جلب الحطب، أو نفذت قِرب الماء دون أن تملآها في الوقت المناسب، وغير ذلك من الأسباب التي لم يكن

مسعود يفهمها لكنه لاحقا حفظها كطقوس مقدسة على كل الرجال احترامها، كانت تلك الصور كفيلة بأن ترسم له القوانين الصارمة لمعاملة التاءات بمختلف الأعمار، فتجاوز الصور جميعها إلا تلك التي تأخرت فيها أمه صفية وضرتها الياقوت عن العودة قبيل العصر، تجران بحبلين حزمتي حطب، امتطى عمه حصانه وراح يتتبع أثرهما، لم تكونا بعيدتين بالقدر الذي يزعج موعد شايه، رغم ذلك طاردهما بعصاه يعتلي حصانه الذي راح يغير مساره بين صفية والياقوت، كان دوما النصيب الأكبر من تلك العصا يمزق فروة صفية التي لم تسعفها قامتها القصيرة ووزنها في الهرب كما كانت تجيد ذلك الياقوت، يومها صوب عمه بثقلها على رأس أمه فساح على وجهها الناصع دم القهر، ولم يجرأ أن يمسح دماء أمه التي ظلت تزداد حتى كادت لا تبقي غير العينين، وإلا كانت تلك العصا له بالمرصاد.

لأول مرة بكى مسعود غبن أمه وهو يرقب من خلف ستار الخيمة رأسها الذي كشفته الياقوت وراحت تذر الكحل على الجرح بعدما نظفته بالماء كي يلتئم، ثم تربطه بقطعة قماش تعصب بها عادة رأسها، وصفية تئن دون أن يرتفع أنينها خارج الخيمة.

الأكثر وجعا من كل هاته الصور هو صمت والده بعد عودته وكأن ما فعله أخوه هو واجب فقط لا يستحق الذكر، كانت تلك أول بذرة كراهية تزرع داخل مسعود تجذرت لاحقا مع ارتحالهم إلى المدينة وتسجيل زينب ابنة أخيه بالمدرسة، بينما أرسله هو بعيدا يرعى الأغنام نهارا ويبيت معها للحراسة ليلا فزاد البعد والجفاء من قسوته.. منذ ذلك الحين أصبح أقرب للوحش وقد تجرد من إنسانيته فكانت زينب أهم محطات انتقامه.

لم يعلم بخبر انتقال عائلته إلى المدينة، ولا علم برحيل الياقوت لتسكن منزلا آخر مع أبنائها، لم يعش أفراح والدته التي غيرتها حياة المدن بعد غياب عمه فأبيه، أفراح ظلت تحييها مع فرقة تشكلت تلقائيا دون تنظيم، حتى غدت لاحقا فرقة مكتملة تحيي مناسبات الأقارب والجيران. إنما توقف به الزمن عند ذلك الفراغ الذي امتد بينه وبين صحراء التيه.

القلب لم يعد قادرا على امتصاص الحزن ككل مرة، إنه يرتشف الخيبة فالأخرى، طالت متاهات الانتظار والجدة بعيدة عن هذا العبث الذي خلفه الوحش... تتمدد ساعات القهر وصالح لم يعد بعد من رحلته السندبادية، لابد من مخرج قبل شروق شمس الغد.

في حقيبة جلدية جمعت زينب ما خف حمله وثقلت قيمته، متنكرة باللحاف الذي لم يناسب عمرها، قبل أن تغادر بلا وجهة مع أول حافلة قادمة من الجنوب عابرة مدينتها، تبتلع الركاب الذين لم تظهر الشمس بعد ملامحهم في صمت كئيب، بقلب مرتبك الخطى سارت بالرواق يقودها القابض إلى حيث تجلس امرأة ستينية أزاحت حزمتها عن الكرسي المجاور حين رؤيتها زينب. كل الأنظار كانت تتوجس من خطوات امرأة ملتحفة في عمر الزهور تسافر وحيدة، غير أنه لا أحد تجرأ على السؤال، اكتفوا بنظرات تختصر الأسئلة داخلها، تكاد تلتهمها قبل أن تخفي نفسها بالكرسي وتعود تكمل سباتها تلك العيون الفضولية.

لم تحتط للسعات البرد التي جمدت أصابع رجليها ولا فكرت في الوجهة التي تريدها، كان يكفيها أن تبتعد عن الوحش، أن تلغي اسمه من حياتها ولا تتعثر به ولو ذكرى، غير أنها لأول مرة شعرت

بخوف فاق خوفها الوحش نفسه، أين ستنزل، ماذا ستفعل؟ بل كيف ستلتقي بأمها التي ظلت تبحث عنها ؟ ماذا لو عاد صالح أين سيجدها؟... أسئلة كثيرة عبرت فكرها، بعثرتها لحظة سألتها المرأة الجالسة بجانبها :

-"أين تتجهين يا ابنتي؟".

سؤال بحجم كارثة الهروب ألقته كقنبلة موقوتة، وكلها استعداد لمعرفة الجواب. تظاهرت أنها لم تسمع السؤال، ولتشغلها عن الجواب أعادت عليها السؤال نفسه:

-" إلى أين تسافرين يا خالتي؟".

تبسمت المرأة وقد تحمست للحديث:

-" إلى أرض الأولياء الصالحين، نفعنا الله ببركاتهم".

ثم أضافت:

-" كنت عند ابنتي في تيميمون، وضعت مولودها الثالث... كثر خير زوجها وأهله أحاطوها بكل الرعاية وأراحوا قلبي، الله يريحهم دنيا وآخرة".

يحدث أن نبتسم لغريب يروي لنا تفاصيل أفراحه دون أن يكون لتلك الابتسامة شبه بما نخفيه، كانت المرأة قد وجدت أخيرا من يحاورها بعد مسافة طويلة قطعتها من تيميمون باتجاه إحدى القرى التي تتربع خلف مدينة العقبان ، أخبرتها كيف تقضي أيامها وحيدة بعدما غادر ابنها المنزل، وتكتمت عن سبب مغادرته كأنما تداري عارا، منشغلة بإخفاء دمعة كانت تعبر خلسة خدها ملتقطة آخر صورة لابنها يغلق باب المنزل بصمت. ثم عادت مرة أخرى كأنما تذكرت سؤالها الأول:

-" إلى أين تسافرين لوحدك يا ابنتي؟".

وساد صمت يشي بحزن عميق...

للحزن رائحة مطر لا ينبت غير الدمار، وللفجيعة رعشة الموت المباغت للفرح، اضطربت زينب تشد طرفي الحايك أسفل ذقنها وقد أخفت قطعة القماش -المزخرفة بالدانتيل والمشدودة للخلف بخيطين- مخارج حروفها المتعثرة، غير أن المرأة كانت تقرأها بعينيها الذابلتين وكأنما تقرأ طالع زينب التي استلت خيط حكايتها تشعل فتيله أمام امرأة غريبة دونما حرج أو خوف من الوحش الذي يكمم الأفواه ويبتر الحكايا.

مضت أكثر من ثلاث ساعات وما انطفأت فتيلة البوح، المرأة تصغي في صمت وألم وجعَ زينب، تضم يدها كأنما تحولت فجأة أمها، وزينب تعرض ألبوم جراحها باكية بصمت لا يقطعه غير ابتسامات تتورد على خدها كلما عبرت ذكرى لأمها أو لابن عمها، ما همتهما الحواجز التي كانت توقف الحافلة، ولا القرى التي كانت تبتلع راكبا أو اثنين، كانتا تحلقان بعيدا قبل أن ينتبه الجميع لصوت القابض:

-"الجماعة اللي بغى ينزل يفطر".

ثم يضيف:

-"ما طولوش يرحم والديكم".

انتبهت زينب لمعالم الطبيعة التي تغيرت، خضرة تملأ السهول، أرض لا تستوي كما صحراء قلبها. ووجوه بحمرة على الوجنتين، لاشك وصلوا مدن التل. سحبت المرأة من حقيبتها الصغيرة بيضا مسلوقا، خبزا كما الذي تطحن قمحه زينب هي وجدتها، وتمرا وماء، قدمت منه لزينب التي ظلت عيناها تتلصص على النافذة، تكتشف هذه الأرض الجديدة التي لم تر مثلها من

قبل. وقد تقاطعت نظراتها بنظرات الركاب الذين نزلوا من الحافلة بعدما أوحت لها اللافتة باسم مركب من كلمتين "عين الحجر"..

لم يبق من انتهاء الرحلة الكثير، قلب زينب ينقبض كلما طوت الحافلة المسافات، انقباض أدركته المرأة وبددته بكفها الذي انزلق يربت على فخذ زينب في حنو بعدما طلب القابض من الجميع تفقد أمتعتهم:

-" أنت الليلة ضيفتي ".

"للغرباء أيضا . . . أوجاع"

نتيه في دروب الحياة، تتلاعب رياحها بأوراق العمر التي تتساقط ورقة ورقة، ورغم ذلك لا يزال بالقلب أمل ننتظر أن يتحقق ولو بقي من العمر يوم أخير. ومادام بالقلب حلم فثمة انتظار لفرح آت، انتظار لفرج قريب، للحظة انعتاق قد تأتي.. لابد أن تأتي لتمحو من القلب صور الخوف والبؤس والتيه.

ينعتق قلب زينب لرائحة المطر التي تفتتح موسم الخريف لهذا العام، تتعطر الأمكنة برائحة السرو والصنوبر... تشم ريح الذاكرة، مزيج من القرنفل... من النقاء... مزيد من الطمأنينة التي يهديها لها هذا المطر، ذكرها بالأمطار التي كانت تروي ظمأ الصحارى بدايات الخريف... تجلس على ربوة تشربت صوت الرعد ليلة أمس وبات ترابها على حُفر صغيرة ينقش رائحة الزرائب المغسولة بالمطر... والكثير الكثير من الطفولة العالقة بالقلب... إنها رائحة الحياة تعود لرئتيها رغم الغربة التي مزقت الروح. يزداد هطول المطر مشكلا شعابا صغيرة، تتقاطر من ذاكرتها صور إيزابيل إيبرهارد يوقع نهايتها وادي العين الصفراء، يعاودها قلق فيضان القلب لكنما صوت دافئ في حنو يبدده.

ها قد اعتادت أذناها صوت "الخالة خيرة" كما تناديها، تلك التي انتشلتها من التشرد يوم ربتت على فخذها قائلة "أنت الليلة ضيفتي". مرّت ليلة وأخرى وشهر فآخر دون أن يكون لها غير منزل خيرة ملاذا، ألفتها هي وجيرانها الذين لا تتوقف زياراتهم اليومية في ودّ، ألفت العم رابح صاحب الدكان الوحيد بالقرية، ألفت أطفالهم الذين توقفوا عن الضحك على لهجتها التي لم تكن تشبه لهجتهم يوم التقطوا منها كلمة " البزوز" حين خاطبتهم بها فردوا قائلين "نحن غراوين ولسنا بزوز". ألفت كل شيء حتى طقوس خيرة في "العرافة" التي ابتلعتها في البداية على مضض ثم لاحقا تعايشت معها وإن لم توافقها فيما تعتقد. وحدها فكرة البحث عن أمها وعن ابن عمها ظلت عصية على الترويض والنسيان.

-"وين قهيوتك يا زينب، ازربي قبل أن تأتي الزائرات".

-" جاهزة خالتي، دقيقة وتكون عندك كما يبغيها خاطرك".

ولم يكن خاطر خيرة يحب أكثر من مجالسة زينب وأما القهوة فطقس محبوب بمجالسيه، بالنهاية متعة القهوة ليست دائما في البن وإنما فيمن يشاركنا اضطهاد ذاك البن على النار.

ضحكت خيرة بعد أن جلست على أريكة قديمة بالهو وراحت تغني لزينب الخارجة لتوها من المطبخ حاملة القهوة:

"قهوجي قهوجي جيبلي قهيوة...تكون حليوة.. تكون سخونة".

ابتسمت زينب تضع على الطاولة الصغيرة صينية القهوة التي حلّت محل الشاي الصحراوي، جلست على أريكة مقابلة بعدما كانت جلسات الشاي تقام على الحصير والزرابي الصوفية ترافقها حكايات جدتها قبل أن يهدم منزلهم الوحش. طقوس كثيرة وعادات تغيرت مذ غادرت ذات صباح باكر مدينتها الصحراوية نحو مدن التل التي احتضنت أوجاعها لكنها فشلت في ترميم ذاكرتها المتآكلة وشوقها لحبات الرمل ورائحة الشيح والعرعار.

الشمس الخجولة أطلت تسابق غيمات انعكس ظلها بالتلال، ترتمي بعض خيوطها على الطاولة كأنما تحاول التقاط أحاديث زينب خيرة قبل أن يطرق الباب وتنصرف خيرة إلى غرفة خصصتها لممارسة طقوسها. كان الطارق وجها جديدا هذه المرة، لم تتعرف عليه خيرة ولا زينب، شيء ما حرك فضول زينب التي قرأت فيها ملامح سمرة لا تتزين بها إلا نساء الصحراء، فتبعتهما على غير عادتها لتلك الغرفة الصغيرة وقد جلست قرب عتبتها على

كرسي صغير، بينما بسطت خيرة أدواتها على الأرض وراحت تسأل الزائرة عن أحوالها، لاحظت وجود زينب التي غلبها شوقها فتوسمت في الزائرة خبرا قد يوصلها إلى أمها أو إلى صالح.

حملت خيرة حفنة قمح كانت حررتها من صرة لتنثرها فوق غربال، تأملتها طويلا قبل أن تنطق:

-"تسكنين دارا عالية وأهلها أهل جاه وعلم، حولك خدم وحراس وثروة بعدد النجوم".

قالت ذلك ثم عاودت تجميع حبات القمح في كفها، حركته قليلا قبل أن تعيد نشره مرة أخرى فوق الغربال وقد جحظت عيناها لأمر رأته مريبا، سحبت صدار لباسها تنفث وتشد على صدرها:

-" يا لطيف... يا لطيف... انظري... لهاته المرأة البدينة الواقفة عند عتبة بابك، واضح أنها من الأقارب الذين يترددون على منزلك، لكنها لا تنوي خيرا مطلقا، خلفها أخرى ترافقها كظل...".

تهز الزائرة بالإيجاب رأسها:

-" كاينة يا لالاّ... كاينة".

تجمع خيرة حفنة القمح تنثره للمرة الثالثة على الغربال. تتفرس زينب ملامح الزائرة بعدما أزاحت عن رأسها الحايك فتجلى شعرها الفحمي في بهاء شبهت له ضفيرتها بضفيرة أمها وهي تدهنه بزيت الزيتون، واصلت خيرة تستكمل آخر شوط من الكشف عن سر الزائرة:

-" عند الباب حصان أبيض بسلهامه، واقف ينتظر منك القبول، غير أن المرأة البدينة ترده بحجاب وضعته بشجرة الحوش، فكي رباطه بماء الزهر ينفك رباطك ويدخل العَود الأبيض مراح دارك".

هنا تحدثت الزائرة بلهجتها الصحراوية كما توقعت زينب وأخبرتها عن صاحب العود الأبيض وعن المرأة البدينة ومرافقتها، واستفاضت في الحديث تؤيد قول الخالة:

-" كاينة يا لالاّ ...كاينة، وما جبرت دواء لحالتي".

ترد خيرة:

-" دواك عند خالتك خيرة، اعقدي النية، خذي وريقات حناء في صرة صغيرة ضعيها تحت وسادتك ليلا، وفي الصباح تكونين هنا - تشير بيدها للمكان الذي تجلس فيه الزائرة- أخفف ألمك بالرصاص والمهراس".

أومأت الزائرة بالإيجاب تخرج من حقيبة نقودها ورقة نقدية زرقاء وضعتها بيد خيرة ونهضت تقصد الباب، استوقفها سؤال زينب:

-" من أي أرض في الجنوب أقبلت؟".

ارتبكت تعدل الحايك، تبتلع ريق شك وقد خشيت أن تكون زينب قد عرفتها، قالت:

-"كل أرض الله بلادي".

ولم تترك لفضولها سؤال، بينما خيب الجواب زينب التي أغلقت خلفها الباب وقد تبدد الحلم.

مرّ ذلك اليوم طويلا بعدما نبشت فيه تلك الزائرة حقيبة التذكار، وكأنما نفخت في بوغة الرماد الذي ظلت زينب ترشه بعطر النسيان لكأنه لا يزيد إلا توهجا واشتعالا. عادت صور أمها

تصافح القلب الموبوء فراقا، وعاد صالح في أبهى حلة باللقاء الأخير، تتذكر قوله وقد عاودتها هزات الشوق المكابرة "الهزات العنيفة لا تسقطنا، إنها فقط تزيدنا تشبثا بمن نحب" غير أنها صارت هزات أعنف، تجاوزت القلب إلى الجسد فأوهنته.

في المساء كانت زينب قد أعدت فنجان شاي على طريقتها الصحراوية، بعدما رمتها الزائرة برياح التذكار. بجانبها جلست خيرة تحاول أن تشغلها عن التفكير بأهلها وحالها، قالت:

-" شاي الصحراء يكون بالنعناع، هذا شاي بين بين، لا هو تلي ولا هو صحراوي".

ابتسمت زينب تقلب الشاي من الكأس إلى الإبريق في حركات تعشقها، تتراءى لها جلستها بغرفة جدتها، وصالح الذي يرتشف فنجانه في دفعتين أو ثلاث. قالت بحسرة:

-" لا يتواجد النعناع في هذا الفصل، إنه وقت الشّيبة".

ولتغير خيرة من حزن زينب قالت مازحة:

-" الشيبة يا شيبي... وما شيبني غير ولدي حبيبي".

ثم انتبهت أنها لم تزد الجو إلا حزنا على حزنه، سألتها زينب عن سبب رحيله وتركها وحيدة غريبة، سألتها وما درت أن جرحها كان قد تقرح برحيل ابنها وقد خالت نفسها عالجته، هي كانت فقط غطته إلى حين.

-" الجرح قديم يا ابنتي، كلما أوهمت نفسي بالنسيان طفى القيح فوقه فأعاد لي الوجع. ضري ساكن صدري إلى يوم أوارى التراب".

ارتشفت من فنجان الشاي غير أنها لم تحمل شيئا من قطع الخبز الساخن الذي وضعته أمامها، كانت زينب قد فتقت جرحها دون أن تنتبه لعمق المأساة التي تخفيها بقلبها خيرة، تنهدت عميقا ثم أطلقت سراح الكلمات المحبوسة منذ زمن:

-"كبرت يتيمة، توفيت أمي وهي تلدني فتزوج والدي بعد ذلك وأنجب لي إخوة لم أكبر معهم، ربتني جدتي لأبي. فلم أشعر بيتمي إلا حين فقدتها هي أيضا، لقد كانت سندي وملاذي وعالمي. والوحيدة التي لم ترني منحوسة ونذير شؤم كما كان الجميع يراني ويتحاشاني، لا لشيء سوى لأن والدتي ماتت وهي تلدني فصرت من يومها ألقب بالمنحوسة.

زوجني أبي لأحد أقاربه أنجبت منه ابنتي رقية وابني عبد الله. كان كثير الترحال بحثا عن رزق قبل أن يغادرنا في حادث عمل. جدي التحق إلى جوار ربه. ولم أجد غير خيمة والدي وإخوتي الذين يقال عنهم الظهر والسند بعد غياب الوالد. والدي رفض عودتي بطفلين، أمر أن أحتفظ بعبد الله وأن أترك رقية عند أعمامها، وخوفا منه أطعت".

تصمت قليلا، ترتشف مرة أخرى من فنجان الشاي الذي بدأ يفقد حرارته. تشبك أصابع يديها في قلق:

-" لقد كانت أذل أيام عشتها بين زوجة أبي ونساء إخوتي. أرعى الأغنام بكرة وأجمع الحطب مساء تاركة ابني مربوطا بإحدى أوتاد الخيمة، أضع الطست تحت القربة كي تتجمع قطراتها فأروي بها عطش ابني الذي انتفخت بطنه من مياه البرك. لم يكن يصبرّني غير قدوم أختي الكبرى الذي انتظرته بفارغ الصبر. أختي التي كانت أوفر حظا مني بزواجها من إحدى تجار أولاد نايل، وهي تعيش أفضل حالا منا جميعا. كان انتظاري لها هو الخيط الرفيع الذي ظللت أتمسك به وأصبر نفسي على ذل بيت أبي بدل عزه، إلى أن حطت الرحال عندنا مثلما انتظرت وتمنيت. وصولها كان أشبه بوصول عروس حاملة الهدايا لأهلها. امتلأ وجهها واحمرت

وجنتاها، أثر النعمة كان باديا على ملامحها عكس ملامحي التي تآكلت وذبلت حتى أبكت أختي لحظة رؤيتها لي.

أقسمت أختي على أبي أن تصحبني معها، وما دمت أخدم زوجة أبي فإن خدمتي لأختي أهون وأعز. رفض والدي معتبرا ذلك عارا ولم يسمح لي بالمغادرة إلا بعدما أقنعته أختي أنها ستكون فقط زيارة طويلة أرتاح فيها ثم أعود، وقد رحبت زوجة أبي بالفكرة كي تتخلص من عبئي وولدي. من يومها تغيرت تماما حياتي، وعدت للحياة أنا وابني وابنتي رقية التي أخذتها من عند أعمامها قبل أن نتجه نحو الشرق وقد أحسستني تخلصت من سجن العبودية ذاك.

مرت السنوات، كبرت رقية وعبد الله، تغيرت الأوضاع... كبر أولاد أختي، تزوج أكبرهم فصار لزاما علينا المغادرة تفاديا لإحراج أختي. توجهنا نحو مدن الغرب طمعا في الحصول على عمل، كان ابني يرعى القطعان مقابل أجر بسيط، وابنتي تغزل الصوف وتنسج الزرابي. متنقلين من دوار إلى آخر ومن قرية لأخرى إلى أن توقف بنا المطاف هنا أين التقيت صدفة بمباركة العرافة، تعلمت منها وصار منزلي لا يكاد يخلو من الزائرات اللواتي يرغبن في قراءة فألهن. غير أن عبد الله ظل يزمجر كلما دخل ووجد عندي زائرة.

تزوجت رقية رجلا من تيميمون كان نزل ضيفا على مدينتنا، ففرحت وقد اطمأنيت على مستقبلها، بينما أرّقني مصير عبد الله الذي ظل تائها في رحلة بحث عن عمل، ولم يكن لي خيار التخلي عن مهنتي الجديدة كعرافة أو ثلاّعة كما يحلو للكثير نعتي".

تنهدتْ عميقا عند ذكر كلمة " ثلاّعة " ابتلعتْ جرعات متتالية من الماء، ثم عادت تواصل نبش الذاكرة بعدما تعذر عليها بتر أحداثها. ظلت زينب صامتة تحتسي الشاي في هدوء، تصغي لوجع خيرة كما لم تروه لها من قبل، فتهون أوجاعها أمام وجع خيرة التي واصلت:

-" الحق يقال يا ابنتي زينب أنني استأنست كثيرا بالزائرات على اختلاف مناطقهن ومشاكلهن، كنت أشعر أنني أخفف عنهن ولو كذبا وأنهن يحببن ما أقول حتى وإن لم يصدقنه، وأما ضرب الرصاص ففيه حكمة لا يدركها إلا من آمن و جرب.

ظل رزق والدي يتسع بمرور السنوات، صار لديه أغنام وإبل وأبقار أيضا، اشترى منزلين بالمدينة خصص واحدا لمرافقة الأولاد الذين التحقوا بالمدراس، تتناوب على رعايتهم نسوة إخوتي، بينما حوّل الثاني مخزنا للعلف ولمعدات الفلاحة. لم أعرف بذلك

كله إلا حينما وصلني نبأ وفاة والدي واقتسام إخوتي الميراث دون أن يكون للإناث فيه نصيب عدا زوجة أبي، وفوق كل هذا استدعتني عمتي أنا وباقي أخواتي آمرة إيانا ألا نطالب إخوتنا بحقنا في الميراث أو ننسى أن لنا إخوة من الأساس. في سري كنت أقول "بالحالتين ليس لنا إخوة". ومن يومها لم أعد أسأل عنهم ولا همتني أخبارهم. وأما عبد الله فقد غادر القرية بعدما تشاجر مع أحد أبنائها وعيّره بي قائلا 'يا ولد الثلاّعة الكافرة بالله' هذا ما رواه لي أحد الحضور ولم يخبرني به ابني الذي اختفى بعد هذه الحادثة المشؤومة".

قالت ذلك ثم لملمت باقي الجراح قبل أن تفضحها دمعاتها التي اصطحبتها إلى غرفتها تبكيها ألم الفراق. لم تتبعها زينب، مثلها تدرك أن للحزن أيضا مواسم وطقوس. عادت تحمل صينية القهوة إلى المطبخ، تعصر زرا دائريا مدببا فيئن المذياع معلنا اقتراب ذكرى اندلاع الثورة التحريرية الكبرى، وصوت آسر حزين:

" الطيارة الصفرا حَبسي ما تضربيش

عندي راس اوخي لمّيمة ما تضنيش

الله الله ربي رحيم الشهداء

الجندي لي جانا و طرحنالوا الفراش

سمع فرنسا جات القهوة ما شربهاش

الله الله ربي رحيم الشهداء رحيم الشهداء

الضيف لي جانا يكركر في البرنوس

ذاك سي عميروش و أنا ما عرفتوش

الله الله ربي رحيم الشهداء"

مع أول خيوط الصباح طرق الباب، أسرعت زينب تفتحه للزائرة السمراء، وقد سكن عينيها الرجاء. أدخلتها الغرفة الخاصة، ثم نادت خالتها دون أن تغادر. عادت تجلس بنفس المكان الذي جلست فيه أمس. دخلت خيرة تحمل علبة كبريت أوقدت به الكانون بعد أن فتحت قارورة الغاز، كان إناء حديدي مستدير يتربع فوقه وعليه صفيحة رصاص.

بادرت الزائرة السمراء بالتحية، تسلم خيرة صرة صغيرة ضمت وريقات الحناء التي بيتتها تحت وسادتها كما أمرت، وقد دست داخلها قطعة نقدية بقيمة خمسة دنانير كما جرت العادة، تناولتها وهي تردد:

-" بسم الله... يا سيادي ... لا تخيبوا مرادي".

سحبت المهراس النحاسي من تحت طاولة خشبية، صبّت داخله نصف كوب ماء، بعثرت عليها وريقات الحناء التي أحضرتها معها الزائرة، ثم راحت تتفقد انصهار الرصاص الذي علت رائحته فانتشرت بكامل الغرفة ممزوجة برائحة اشتعال غاز البوتان.

ظلت زينب تصغي باهتمام لكل كلمة تقولها الزائرة، أكد لها أنها من مناطق الحدود الجزائرية المغربية قولها:

-" كنت كَنْبَات باكية شحال من ليلة".

"كَ ... نْبَات" هي كلمة العبور لمدن الحنين، لم تتمالك زينب نفسها حتى انفلت منها خيط السؤال:

- " من الجنوب الغربي ، صح؟".

التفتت الزائرة تهز رأسها أن "نعم" دون أن تنطق. أعادتها خيرة صوب المهراس وهي تطلب منها الوقوف لترفع فستانها قليلا وتفتح رجليها كيما يتسلل دخان الرصاص أسفلها. حركت إناء الرصاص المنصهر تشده بقماش بللته كي لا يحرق صهده أصابعها مرددة قبل أن ترمي الرصاص السائل داخل المهراس:

- " آ هَبْ هَبْ.. كي السحاب مْنِين يْصُب".

الجملة التي حيرت زينب مذ سمعتها أول مرة، من تراه هذا الذي تستدعيه أن يهب هبوب الريح، كالسحاب الذي يمطر. ولم تجد له جوابا، ثم ما عادت هاته الجملة تهمها بعدما تردد ذكرها كثيرا مع كل زائرة، في طقس تحرص عليه خيرة وتخضع له الزائرات المهمومات.

صوت الرصاص الذي تفرقع وتشكل داخل المهراس أفزع الزائرة التي تراجعت خطوة للخلف، لتجلس بأمر من خيرة وتندهش مثلها من تشكيلة الرصاص الجديدة. تلك التشكيلة التي سحبتها خيرة برفق تاركة قطرات الماء تنزلق من بين أصابعها إلى المهراس، مزيحة ما علق به من وريقات حناء مبللة تعيدها للماء، تتفحص التشكيلة الرصاصية من كل الجوانب وهي تقول:

- " فالك لا يعجب عدوا ولا صديقا... انظري لهذه المسامير التي تشكلت حولك، إنهم أعداؤك الذين يكيدون لك، وهذه العتبة كيف تبدو مشقوقة، إنها عتبة مسكنك زرعوا لك فيها التمائم كي تخلي دارك".

لم يرق القول زينب التي درست وعرفت أن ما تقوم به خيرة مجرد خزعبلات لا صحة لها، لكنها رغم ذلك ظلت جالسة عسى أن تظفر من الزائرة بخيط. عاودت خيرة تسخين الإناء وإذابة الرصاص لتعيد نفس الكرة، والزائرة تكشف شيئا فشيئا عن هويتها إلى أن نطقت زينب أخيرا تسأل عن أمها إن كانت سمعت عنها شيئا أو تدري سبيل الوصول إليها، غير أن الزائرة لم تتعرف عليها، لكنها وعدتها أن تعود إليها بأخبار متى سنحت لها الفرصة وزارت أهلها هناك. كانت الزائرة متزوجة بمدينة قريبة من قرية

خيرة وقد نصحتها بعض النسوة بخيرة الثلاّعة طمعا في حل مشاكلها.

شيء ما حرك مشاعر زينب التي أكملت لأول مرة طقوس الثلاّعة من بدايتها إلى نهايتها ليس فضولا للاستماع إلى خرافة خيرة وإنما رغبة في الوصول إلى خيط مهما كان رفيعا قد يربط على قلبها فلا ينفطر شوقا وغربة.

لا شيء ظل يسكنها بعد مغادرة تلك الزائرة غير فراغ رهيب، وحروف تسابق دقات الألم لتغطي على ذلك الأمل في خفوت.

يتناثر عمرها كألعاب طفل ملّ محاورتها دون أن تجيب... يهتز قلبها لرؤية قطار قادم من الساورة إلى التل، عابرا هذا المكان الصغير الذي تلوذ إليه، شيء ما ينخر داخلها كلما أعلنت صفّارة القطار قدومه تمخر وتهز الأرض فيهتز معها قلبها كرة صغيرة لا تعنيها الجاذبية، وعلى طول امتداد سلسلة جبل عنتر... يمتد الحنين شابكا متاهات الطريق دون أن تصل حقا، كلما خالت نفسها عثرت على خيط رفيع يصلها بأمها تمزق ذلك الخيط وانفلت فعادت بألم تبرم فتيله من جديد.

"ملح الشوق يفتق الجراح"

عادت الحاجة صفية تحمل بحقيبتها روائح من مكة، راسمة بمخيلتها فرحة زينب بالأساور وبعودتها إليها، وما درت حجم الخيبة التي تنتظرها، استقبلها ببراءة حفيدها منصور وهي لم تخلع بعد نعلها:

-" حنّة*، زينب راحت".

ضمته لصدرها دون أن تكترث لكلام طفل لم يتقن الكلام على أصوله بعد وراحت تنادي على زينب كي تساعدها في فك حزام الحايك، بالعادة تسبقها زينب حتى دون أن تطلب منها ذلك. لكن طيفها لم يطلع من الغرفة، بدله كان وجه مبروكة وحركاتها المضطربة التي تفك حزام الجدة لا يبشر بخير، سألتها عن زينب فأخبرتها أنها أبكرت عند جارتهم تساعدها في فتل الكسكس، قلما تذهب زينب عندها، كذبة ظلت مبروكة تنسجها تحسبا لعودة الجدة تمهد بها ما سيلي لاحقا، ثم سألت عن الوحش فقالت بتردد:

* حَنّة: جدتي.

-" سا..فر".

لم تسأل وجهته كانت تعلم بترحاله الدائم إلى أي مكان قد يبرم فيه صفقة عمل.

جلست بمكانها على الزربية البيضاء، تتفقد بعينيها غرفتها وتقلب تحت فراشها عن أشيائها الصغيرة؛ المصباح اليدوي، المسبحة الخشبية، دهن نفاذ الرائحة تدّلك به ركبتها كلما عاودها الألم، وبعض المناديل لبقايا أقمشة مزقتها مربعات للاستعمال وقت الحاجة.

كانت الحاجة صفية تمددت قليلا قبل أن تضع مبروكة أمامها صينية الشاي وتجلس بخوف استعدادا لمرارة ما ستروبه. تمنت لو أتى صالح قبل عودة جدته، يعفيها من مهمة ثقيلة لن تنساها الحاجة صفية ولن تنسى الشخص الذي نقلها لها. غير أن صالح مذ غابت زينب لم يعد لمنزل جدته ولا لأرض توات، ظل تائها يقتفي أثر محبوبته وإن كان الأثر امحى وغاب. يبدد طاقته في البحث وحين يكلّ يعود إلى أم الخير دون بشارة، أو يسهر مع خالد وقد تورم قلبه من المشي حافيا على رمل التيه.

سافر الوحش إلى غير رجعة منخرطا في صفوف الجماعات المسلحة التي تكاثرت فجأة على رؤوس الجبال وبالغابات، ظنا منه أنه يقوم بتصفية أعداء الله وهو الذي لخصه في عدو واحد أسماه "المرأة" فبقر بطون الحوامل، ونكّل برؤوس المتعلمات اللواتي كان يرى فيهن فشله، واغتصب العرائس ليلة فرحن، لم يترك بشاعة في تلك الجماعة المسلحة التي ينتمي إليها إلا أتاها حتى لقب عندهم بالأمير. حين بلغ الخبر الحاجة صفية أخذت تضرب بيديها بطنها وتقول:

" ليت هاته البطن بُقرت قبل أن تلدك، لو كنت علمت بِعارك كنت بيدي دفنتك".

ثم تنتحب داعية أن يخلصهم الله من عاره وشره، راثية زينب التي لم تجد طريقا يوصلها إليها ولا طاوعها النسيان. وحدها مبروكة كانت ترفع يديها مؤمنة خلف دعوات الحاجة صفية. ها هو الوحش قد وسم باب الدار بالسواد، وجعلها نقطة تفتيش الشرطة عند كل هجوم يشتبه أنه قائده. فلا تزيد الحاجة صفية إلا إلحاحا في الدعاء "يا رب خلصنا من شر أنجبته كرشي... يا رب لا تحاسبني به". اسودت السنوات على أبناء الشعب، طال الموت العشوائي كل من عبر طريقا يبتغي فيه علما أو وطنا، انتشرت

رائحة الموت وامتدت إلى وضح النهار بعدما كانت تقتصر على الهمجية الليلية.

ظلت زينب تستمع بقلب واجف إلى أنباء القتل يذيعها صحفي جف حلقه خوفا من موت قد يطاله في أية لحظة، وتشربت البلاد دماء الطاهرين المغدور بهم نحرا ورميا بالرصاص . عدد القتلى يرتفع مع كل دقة ساعة وكل نشرة أخبار. خيرة توقفت عن امتهان العرافة بعدما مكثت النساء خوفا في بيوتهن فما عادت المشاكل تشغلهن مثلما شغلتهن عشوائية الموت. وأما صالح فظل يتردد على أم الخير، كأنما يعزي نفسه في فقدان زينب. بدورها ظلت تشم برائحته ريح زينب وإن لم تفصح.

كان أتاها هذا الصباح متأخرا على غير العادة، غيرت طرق الموت عادات الجميع، ينامون باكرا أو يتوهمون، يسافرون بعد طلوع الشمس وتتوقف الرحلات ليلا. صالح الذي ألفت أم الخير نزوله مع آذان الفجر صار لا يطرق بابها إلا بعد الظهيرة. لقد غير الموت كل مظاهر الحياة. ورغم ذلك ظل الآباء يرسلون أبناءهم لأجل الدراسة، والأساتذة يزاولون عملهم بالمدارس والجامعات، حتى بعدما أرعبتهم رؤوس المعلمات التي نُكل بها على شجرة بإحدى ضواحي سيدي بلعباس، وحتى بعد نحر أستاذ أمام ابنته

بالمطبخ... رغم الرعب وصور أشكال الموت إلا أن إرادة الحياة ظلت تكافح بكل ما أوتي أصحابها من إيمان.

زينب رأت في تلك القرية كيف ينزل الإرهابيون من الجبال، كيف يرغمون أهاليها على إطعامهم، سمعت نواح الباكيات أبناءهن ممن كانوا في الخدمة العسكرية وعادوا داخل صناديق يلفها العلم الوطني، أو عادوا وقد تركوا عقولهم عند أشلاء أصحابهم. وحدها ولايات الجنوب المكشوفة أرضها ظلت تقبع بعيدا عن تلك الأهوال، يصل صداها القلوب فترتجف وتبتهل تضرعا لله عسى يعيد لهذا الوطن الحياة .

جلس صالح قرب الموقد الذي أشعلت ناره أم الخير، تستعجل طهو العشاء قبل أن يحل الظلام. ينفخ في يديه ثم يمدهما لتلتقطا دفء اللهب. وجه أم الخير يحتقن حرارة، ويدها لا تتوقف عن نبش الجمر الذي أخذ يتشكل، تزيحه جانبا لتضع عليه لاحقا إبريق الشاي، بينما قدر العشاء يغلي في هدوء.

-" خالتي...أين تراها تكون زينب، ما تركت مكانا قد تفكر فيه إلا ذهبت إليه.. ولا مركز شرطة إلا تركت فيه بلاغ اختفاء.. أين ذهبت ياربي... أين ؟".

أم الخير تدرك اتساع الجرح غير أنها تخفف عن صالح، عوّدها الغياب أن تبلع جمرة السؤال. لم تزد عن قولها:

-" ربي لن يضيعها يا ولدي... ربي حنين كريم.. لابد ترجع زينب كما رجع لسيدنا يعقوب يوسفه".

تخرج من صدرها منديلا تمسح عينيها وأنفها فلا يدري صالح أبكاء أم دخانا تسلل إليهما. غريبان كان هو وزينب كما قال، ها هي رقعة الغياب تتورم لتنتشر أكثر، تبتلع أم الخير فيصيروا ثلاثتهم غرباء في وطن صار غريبا عنهم هو الآخر. وطن مخضب بالدماء.. لا عدو إلا بين الإخوة، كانت جدته كتميمة تردد دوما "كل عداوة تنسى أو تداوى، إلا عداوة الإخوة"، وكان أبناء الوطن الواحد يقتل بعضهم بعضا... فمن يثأر لمن، وكلاهما يرفع سبابة التشهد أحدهما عن هدى والآخر عن ضلالة يوهم بها هداه.

انتظرت زينب أن تمطر أيامها أخبارا عن أمها أو عن رفيق دربها، أوهمت النفس بعودة تلك المرأة الصحراوية التي زارتهم منذ شهور ومنحتها بعض الأمل، انتظرت وانتظرت دون أن تمطر

الفرحة المنتظرة لقاءً، ظل مطر الغياب يجلد الأسئلة وصار حبها لزخاته يتحول وخز إبر مع كل خيبة تدفن وكل سنة تأفل.

منا من يعشق هطول المطر، ومنا أيضا من يخشاه. من يمشي معانقا ريش معطف ليس كمن يمشي تحتها عاريا تجلد حباتها قفاه. ورغم كل ما يحدثه فينا من زلازل نظل نعشق المطر.

بتوقيت السوق الأسبوعية للقرية خرجت زينب للمرة الرابعة طمعا في لقاء تاجر التمور القادم من الجنوب، الذي حمل رسالتها إلى صالح، هذه المرة لم يخب الرجاء، لمحت شاحنة التمر تصطف بين الشاحنات القليلة التي نثرت مختلف السلع، انفرجت شفتاها عن ابتسامة غطت ملامح الحزن التي سكنتها، وقبل أن تقف عند صندوق التمر بادرها التاجر:

-" مرحبا... مرحبا...قربي وذوقي .. اللي ما شرى يتنزه".

لم يكن نفس الشخص الذي بلغته رسالتها، كان أكبر سنا. لم تناقش الثمن كما يفعل عادة المشترون، طلبت كيلو تمر "حميرة" وراحت تسأل عن صديقه الذي كان أتى منذ شهرين. تفرس ملامحها ثم قال:

-" زينب ولاشك؟".

أومأت برأسها وأكدت بصوتها المرتجف:

-" نعم أنا زينب التي أرسلت وصية مع التاجر عبد الرحمان التواتي".

حينها أخرج من حاملة أوراق جلدية ورقة صغيرة مطوية عليها عنوان صالح، أخبرها فيها التاجر إنه علم من أهله غيابه المتكرر عن أدرار، لم يعد يأتي إلا نادرا، أخبرها أيضا إنه لن يتوقف عن تفقده حتى يصل إليه. ورقة بحجم قدر يغير مصيرها دستها بصدرها وقد عاودها الحنين ممزوجا هذه المرة بالفرح.

تهوي الجبال الراسيات داخلنا عند كل نسمة تهب بالذكرى، تنكمش أضلع الانتظار على مضغة القلب فتخرب انتظام دقاته، لتفضحنا حمرة الوجنتين وارتجاف جلي بحركة اليدين، قليل من الرمل الذي تسفه عيوننا، والكثير الكثير من ملح الشوق يفتق الجراح الساكنة التي لم ينفعها ترقيع ولا كَيْ.

"وفي أرض توات.. موعد للفرح"

في أزقة الصمت الذي يبوح بكل شيء، ومع أمسيات خريفية لا تزال تحتفظ بصهد الصيف الذي يتمطى في الرحيل، استدارت المرأة السمراء يمين الزقاق وقد نقشت أقدامها أثرا مرتبك الخطى، رافعة يدا مترددة قبل أن تطرق الباب الخشبي. خلفه كانت ميمونة تسأل عن الطارق قبل أن تتبين صوت امرأة، بادرت بالسؤال:

- " منزل السي الطاهر؟".
- "مرحبا .. أنا زوجته ميمونة، تفضلي".

دخلت المرأة السمراء وانغلق الباب على سر زينب الهاربة المغتربة، عادت قصص الحياة تسرد نفسها وتعيد ربط الأحداث ببعضها، بالضفة الأخرى لا تزال زينب تنتظر جوابا من المرأة السمراء ومن تاجر التمر، لكن لا شيء وصلها منذ ذلك الحين، حتى كادت تفقد الأمل في عودتهما عدا ورقة مطوية تختصر الأمكنة.

وأما صالح فلم يتوقف عن البحث، ظل هو الآخر منشغلا بالبحث عن زينب يتردد على منزل أم الخير، يواسي النفس التي

هزلت من الشوق وتورمت أقدام رجائه من البحث. عاد يجر أملا تمزق من كثرة التطواف، وأم الخير ترقعه خيبة فأخرى.

لم تتوقف أم الخير عن الدعاء في صلواتها بأن تعود زينب سالمة، ولا ترك صالح خيطا قد يقوده إلى ابنة عمه إلا سلكه، هكذا كان هؤلاء الثلاثة، جمعتهم المحبة وفرقتهم الأمكنة إلى حين. ألفت زينب حياتها الجديدة التي رأت أنها أقل ألما من حياتها مع عمها الوحش، وإن كان شوقها لجدتها قد بلغ حدود الوجع. اشتاقت جلساتهما معا، حكاياتهما، ضحكاتهما عندما ينتشيان بجلسة شاي، هفت نفسها إلى صالح وهو يزورهم بين الحين والحين.

ظلت زينب ترفع يدي الدعاء طمعا في أن يغادر عمها الوحش، وأن تعود لجدتها، ترتمي بين أحضانها، تستنشق عبير القرنفل وزيت الزيتون المنبعث من ضفيرتيها، تجلس كلما غادرت خيرة المنزل تحت ظل شجرة تقتات من بقايا الذكريات، تمني القلب لو أنها تعود... ليتها تعود... ها هي قد سكنت مدينة لا يربطها بها شيء، لا عاداتهم تحاكي عاداتها، ولا تقاليدهم تشبه تقاليدها، شيء ما يحدثها أنها كتلك اليمامة مهما ابتعدت ستعود.

اعتادت أن تفتتح صباحاتها بذكرى أمها، بذكرى صالح بذكرى جدتها كما الأوراد اليومية، ولا تنام إلا وأطيافهم الثلاثة قد عانقت فتيل الشوق. أم الخير المرأة التي كانت تحل كل عقد النساء بالقصر، المرأة التي تهب دوما للمساعدة لم تعرف فك عقدة الغياب الطويل، ولم تجد لنفسها مخرجا ولا حلا غير الدعاء. تدرك يقينا بإلحاحها في الدعاء أن زينب ستعود. كل يوم تنهض باكرا، تمسح عينيها بلون الجدران الطينية التي تمتص طيف ابنتها، ترتسم بكل الأماكن والزوايا. لا تخطو إلا وطيف زينب يرافقها ولا تغفو إلا وهي للروح الأنيس.

مر من الوقت أكثر من ساعة والمرأة السمراء داخل منزل السي الطاهر تحدث ميمونة التي لدهشتها لم تدر ما تقول، تنظر إليها بعينين شاخصتين تحاول أن تلتقط كل كلمة تقولها هذه المرأة التي لم تعرف اسمها بعد، اكتفت فقط بقولها إنها في زيارة لعمها بأدرار، وأنها زارت القرية التي تسكن فيها زينب. يختلط الفرح والخوف بقلب ميمونة تسألها حال زينب، أهي بخير؟ ماذا تفعل؟ مع من تسكن؟ هل ستعود؟ كلها أسئلة راحت تجيب عنها المرأة السمراء بقولها:

- "لا أدري، كل ما أعرفه أن زينب تبحث عن خيط يقودها إلى أمها أو إلى ابن عمها. وعدتها أنني سأبحث عن صالح ما إن أزور

أدرار وها أنا اليوم عند عمي أتيت، ولتلك الغريبة التي آلمتني غربتها كما غربتي بوعدي وفيت. فدليني على صالح أو أخبريني متى يعود".

سحبت ميمونة نفسا طويلا كأنما استنشقت معه رماد الغربة الذي بعثرته أمامها الزائرة، ثم عادت نفثته حسرة:

-"آه على ولدي صالح... أين هو اليوم؟ سيطير فرحا حين يستقبل الخبر، وهو الذي منذ رحيلها لم يعد صالح الذي كان. بارك الله فيك أيتها المباركة، وبشرك بما تتمنين مثلما بشرتنا بمكان ابنتنا. زورينا متى سمحت لك الظروف".

كانت المرأة السمراء قد لفت حول جسدها حايكها مودعة ميمونة بعد أن أخبرتها عن البلدية التي يسكنها عمها إن احتاجتها أو عاد من رحلاته صالح. ثم استدركت وقد أرخت الحايك عن وجهها:

- " اسمي ربيحة... ربيحة ابنة عبد المولى".

قالت ذلك تعبر حوش الدار نحو الباب الخشبي ترافقها ميمونة التي غيرت الفرحة ملامحها فصارت أبهى وأجمل. غير أن للقدر مفاجآت أخرى يرسمها المولى عز وجل، يدهشنا فيها عطاؤه وتدبيره وهو الذي إن أراد شيئا قال له كن فيكون.

عند الباب الخشبي تراجعت المرأة السمراء لرؤية ظل قادم، كان هيكل ذلك الظل يتأرجح مهلهلا داخل عباءة بيضاء، ويداه تزيحان العمامة من على رأسه قبل أن يستشعر وجود ضيف، لم تنطق ميمونة قائلة " الطريق... الطريق" لئلا تلتقي الضيفة برجال الدار كما هي العادة، ولا ردت على نظرة ربيحة المستغربة، ضربت بيدها صدرها في ذهول خالطه فرح:

"صالح... ولدي!"

"قِبلة القلب..."

نعيش هذه الحياة مسكونين بالأمل، بالفرح، بالشوق لحب دفين. وحده ذلك الحب يبقينا على قيد الحياة.. الحب ليس دائما رجلا وامرأة.. الحب الأكبر والأعمق على وجه الأرض هو ذاك الذي يكون بين امرأة وبعضها، أم وكبدها، تماما كما هو بين أم الخير وابنتها. عادت زينب إلى أحضان الحياة وقد ودعت خيرة هذا الصباح دامعة القلب والعين، خيرة التي شدت على يدها قبل أن تغادر، تستحلفها ألا تنقطع عنها، خمس سنوات كانت كفيلة بأن تحتوي كل منهما الأخرى، أن ترمم كلاهما الأخرى وتنسيها غربة الأهل ووحدة الروح.

لم تكف دموع خيرة التي لم تكن تبكي رحيل زينب فقط إنما كانت تبكي ابنها الغائب أيضا. زينب ليست أقل حزنا منها، فخيرة الصدر الذي انتشلها من براثن التشرد والتيه، لولاها لكانت كماشة الفساد والضياع قد فككت عمرها وأهدته قربانا لأشباح الليل. حاولت ميمونة أن تهدئ الوضع وتنهي مشهد الوداع قائلة:

-" صلي على النبي واذكري الله يا خيرة، لن تنتهي الحياة هنا، سوف نحضرها إليك متى سمحت الفرصة... زورينا أنت أيضا".

ردت خيرة:

-"زينب عوضت شيئا من فقدي كبدي، اعتني بنفسك حبيبة قلبي".

هكذا خرجت زينب، تلقي آخر نظرة على خيرة.. الدار.. القرية... الأطفال...، كانت لحظة خروجها أشبه بلحظة خروج عروس، تدري أنها ستقبل على فرحة العمر، وتدري أيضا أنها تغادر منزلا قضت فيه أجمل الأيام مع رفيقة جمعها بها القدر.

تحركت السيارة تخدش صمت الطريق بكرة، تنحرف يمينا وشمالا بين الغابات تاركة حكايات زينب تجترها خيرة مع جارتها ربيعة التي كانت لها تلك الصبيحة خير أنيس، بينما حملت بصدرها زينب حب خيرة يتجلى أمامها ألبوم ذكرياتهما فتبكيها بصمت قطعته ميمونة بأحاديث وأسئلة كثيرة لم توقفها غير الحواجز الأمنية أو البلديات التي تعبرها طريق العودة إلى الديار.. إلى الأهل .. إلى الدنيا. بينما اكتفى صالح بالنظر خلسة عبر المرآة الأمامية للسيارة مبتسما بعدما ارتدت إليه ملامحه، يرسم تفاصيل للفرح الآت مستعجلا الوصول.

ظلت زينب تتأمل الطريق التي عبرتها سابقا على ألم، كيف لم تنتبه لاخضرار جبالها ولا للبنايات التي كانت تتناثر على أطرافها، كيف لم يغرها منظر القطيع على السهول ولا جمال

الطبيعة المغسولة بالحياة. عادت تهزها ميمونة من ذراعها، تستل خيوط الأسئلة التي لم يهدأ ضجيجها رغم تمدد الساعات إلا وقد نزل صالح بعدما توقفت السيارة التي ظلت تحرث الطريق مسرعة، من طلوع الشمس إلى اقتراب غروبها، فاتحا الباب لابنة عمه وقد ملأه عن آخره الفرح:

-" بيمينك يا ابنة عمي... مرحبا بك في أرض توات ".

كان الرمل ينعتق من حرارة الخريف المتأخر في أرض توات، والشمس تغيب في حياء خلف رمال العرق، وأطفال أنساهم الفضول ألعابهم فوقفوا يراقبون الوجه الجديد. التقت قدمها برمل المحبة وقد ارتد بعدما وطأته قطعا من فرح، تمسح المكان بعينيها، رافعة طرف ثوبها كي لا تعثر خطواتها وهي تردد مع نبض قلبها السعيد:

" بسم الله ..السلام عليكم يا أحباب الله.."

"وما العمر غير لوحة زرفرت ألوانها حكايات"

انحراف السيارة، صفارات تنبيه، حذر السائق ونحن نعبر طريقا توسط جبلين عانقا بمحبة مدينة بوسعادة العريقة، كنا اقتربنا من مسقط فرحي، الحضنة التي احتضنت غربتي بين الديار هناك، أوقدت بالقلب شموع أمل كادت تطفيها رياح الوباء الذي ظل يحصد رؤوس المستضعفين والمستضعفات أمثالي.. إقصاء تارة وتجاهلا أخرى.

أدرك أن المدن الكبرى تستنفذ الجهد والمال و العمر، وأنا البدوية التي يغريها امتداد الوقت بالقرى، لكن كان لابد أن أقطع المسافات بحثا عني في مكان آخر رغم تمزق القلب بين مدينتين الأولى مدينة أهلي سكني، والثانية مدينة فرحي الذي تأجل.

كان لابد أن أفقد أجزائي كي أكتمل، وأن أموت بالتقسيط قبل أن أبعث من جديد، بالنهاية تاريخ الدفن لا يعني دوما تاريخ الوفاة، قد يموت الإنسان سنوات خيبة قبل أن يدفن، وأما أنا فدفنت خيباتي المتتالية كلها في الطريق الذي أعبره بين ذهاب وإياب.

كنت كلما سافرت أحس أنني أكبر بين رحلة وأخرى، أني أتماثل للشفاء رغم كل الندب التي ظلت بالقلب، لم أعد أجيد

شيئا غير غزل الغيوم علّي أعثر على قطعة مفقودة من قلبي غادرتْ فأمطرت هناك. الناس يرون ما حققت وما أنجزت، لكنهم لا يعرفون أبدا الثمن الذي دفعت.

كنت أشد بكلتا فرحتي على اللوحة التي أهدانيها الفنان جرديني محمد، بعدما روت لي تفاصيلها طيلة الرحلة ناسية الركاب الذين بدأت أسمع أصواتهم مع اقتراب الوصول وكأنما استفاقوا من سبات الطريق، يستعرض فيها السائق بطولاته وتفاصيل حياته، ذاك الرجل الذي لم يكن يرانا أكثر من "بلاصة" تزداد قيمتها كلما زادت المسافة.

بحثت عن زينب، أم الخير، صالح، ميمونة.. فلم ألمح غير أطيافهم تحوم حولي تودعني بابتسامة قبل أن تعود إلى اللوحة فتختفي داخل بنايات القصر، وحدها أم الخير ظلت تشد بيدها الحايك الذي أخفى ملامحها ولم تظهر إلا عينها اليسرى العطشى لرؤية زينب... في سري ظللت أردد:

"يااااه... ثلاثون سنة تغير فيها الكثير يا زينب.. تحررت نساؤنا بعدما كافحن وتعلمن وعرفن حقوقهن، غير أن هذا المفهوم الذي كنتِ عنه تدافعين قد ماع هو الآخر بعدما عفنته

مفاهيم دخيلة أباحت كل شيء باسم تحرر المرأة.. فتاهت وتهنا كلنا حتى صيّرنا التيه غريبات".

عدت للوحة أفتش بين ملامحها عني.. عنها.. عنهن.. عن هذا الكائن التائه على مر السنين، كانت أنفاس أم الخير تتسلل إلى أعماقي، وصوتها المتقطع تحت اللحاف يأتي كأنما منبعثا من أقاصي الذكريات:

" زينب.. حبيبة أمك... قادمة يا كبدي إليك".

ورحت لأول مرة أرى صالح بوضوح يسبقها بخطوات فرح، تتبعه إلى حيث ترك زينب وميمونة عند منزل الحاج عبد الله، حز القلب سكين الغياب وظلم الوحش وأشباه الوحش، وضعت يمناها على عتبة الدار، يسندها صالح وقد تعثرت، لم تطرق الباب، كان مشرعا للفرح، وزينب هناك تنفض عنها إزار اليتم، جملة واحدة اختصرت عناء السنين وضخت القلب دم الحياة:

" اميمتي... حياتي..."

الفهرس

كل طرق الحبة تؤدي إليك...	07
حفنة وجعٍ تذرُوها الرّياح.	09
قلب على مجمر الحنين يتلظى...يحترق..	24
الهزات العنيفة لا تسقطك، إنها فقط تزيدك تشبثا بمن تحب.	35
الفراشات رغم ضعفها لا تنحني.. إنها فقط تحلق.. تطير..	43
وفي مواسم الهجرة... تتقاطع رحلات الطيور...	48
لا حاجة لمزيد من النور فقد انكسر ظلك بمرآتي.	58
للغرباء أيضا... أوجاع.	70
ملح الشوق يفتق الجراح.	87
وفي أرض توات.. موعد للفرح.	95
قِبلة القلب...	100
وما العمر غير لوحة زفرت ألوانها حكايات.	103

EL AMIR
MAISON D'ÉDITION